فوزي ذبيان

مراتب الموتى

رواية

الفارابي

مراتب الموتى

فوزي ذبيان

مراتب الموتى

(في قرية إبراهيم)

رواية

دار الفارابي

الكتاب: مراتب الموتى
المؤلف: فوزي ذبيان
لوحة الغلاف: فاطمة مرتضى

الناشر: دار الفارابي ـ بيروت ـ لبنان
ت: 301461(01) – فاكس: 307775(01)
ص.ب: 11/3181 – الرمز البريدي: 2130 1107
www.dar-alfarabi.com
e-mail: info@dar-alfarabi.com

الطبعة الأولى: كانون الثاني 2014
ISBN: 978-614-432-122-5

© جميع الحقوق محفوظة

تباع النسخة الكترونياً على موقع الدار.

إلى أبي...

1

«تباً لكَ. لِمَ هذه التكشيرة وهذان الحاجبان المقطبان؟

هل أنت خائف من الموت وقد باغتك على غفلة من حمارك؟

تباً لهذا الوجه البشع... حتى الموت يأنف من النظر إلى وجهك المقيت....كخّ وألف كخّ.

يا لفمك الجائح ووجنتيك المشدودتين، ويا لهذه السحنة الصفراء!! لا ريب أن الموت قد ندم لأخذك ويتمنّى لفظك كأنك قيء..هه، حقاً أنا أشفق على الموت وآسف عليه...سبحان ربي الأعلى كم أنت بشع»!.

كان إبراهيم يدمدم فوق الجثة وكأنه بحضرة كائن مفعم بكل ضروب الحياة. كان يتمتم كأنه أرملة سوداء أو كأنه باب يئز مضى عليه عمر مديد.

كانت الجثة ترمق إبراهيم بعين جاحظة وأخرى تروغ بين الهدبين. لم يتأتّ له غسل الجثة عن آخرها. كان يقوم بعمله بهمةٍ هي أقرب إلى التهافت، وكان كل الوقت يسير داخل مغسله الفسيح بخطى مكتومة الوقع.

إنها جثة رجل في الثمانين من العمر يمتلك مزرعة للماشية عند أطراف القرية... قرية إبراهيم. يقال إنه كان يفهم لغة الخراف، وكان يشاطر التيوس رأيها. اشتغل فترة من عمره في بيع التبغ الأسود في مدينة على البحر، لكنه اختار فيما بعد الاستقرار في قرية إبراهيم وجرجرة نفسه كل يوم خلف الماعز والخراف. توفي فجأة فوق ظهر حماره الذي أكمل السير إلى ساحة القرية حيث أخذ بالنهيق كأنه يؤبّن سيده العجوز.

أي من رؤوس الماشية لم ترجع إلى مزرعة الشيخ المتوفى. ربما قد افترستها الذئاب أو تاهت في مسارب الوادي الفسيح. بكل بساطة تبخرت رؤوس الماشية لحظة فقد سيدها الحياة.

2

صحا إبراهيم على وقع طرقات على باب بيته وصوت يستحثه على الإسراع. كان يدحش القطن في فم الثمانيني ومؤخرته، وكان يرفع حنكه إلى فمه بقطعة قماش يشدها فوق الرأس الأشيب للعجوز.

لم يردّ بنأمة حرف على هذا الذي يستحثه على الإسراع. اكتفى بنظرة وجّهها إلى الباب الخشبي السميك، وأكمل عمله بصورة آلية هي أقرب إلى الغريزة منها إلى مهنة مكتسبة أو شيء من هذا القبيل.

فإبراهيم وهو كائن في الحادية والسبعين من العمر، لا يجيد القيام إلا بعمل واحد هو غسل الأموات. إنها مهنة ورثها عن جده لأبيه الذي مات منذ أن كان هو في الثامنة عشرة من العمر.

لا يعرف من أمر أبيه شيئاً ولا من أمر أمه، ولا يوجد في ذاكرته

إلا صورة جده العجوز صاحب الحاجبين الكثيفين اللذين كانا ينعقدان بعنف إذا ما سأله إبراهيم عن أمر ذويه.

أول جثة غسلها وحده هي جثة هذا الجد التي أعيته يومئذ من شدة التعفن. يتمتم إبراهيم أن رائحة جثة جده لم تغادر أنفه البتة، وأن رؤية هذه الجثة وهي فوق سطح الرخام لم تفارق يوماً عينه. حتى اليوم، وقد مضى على موت جده عقود، لا يزال إبراهيم يلمح تلصّص عينا جده العجوز على كل جثة يقوم هو بغسلها فوق سرير الرخام.

عاد الطرق فوق الباب ثانيةً وصوت امرأة تبسبس كي يعجل الانتهاء. أخرجت بسبسة المرأة إبراهيم من وعورة سباته، وجعل ينصت إلى صوتها الذي يشبه فحيح أفعى أعياها حر الصحراء.

رمى القطن من يده وجرجر جسده إلى الباب الخشبي. فتح الباب عبر عارضة خشبية رفعها وأخذ يرمق المرأة عبر مئزره الأبيض وعينه الواحدة وهو يلوّح بإصبعه الطويلة بوجهها هامساً: أنا لم أنته بعد!

كان الريق يطقطق داخل حنجرته وهو يوجّه سهام غضبه إلى هذه العجوز الشمطاء. تقهقرت إلى الوراء فشخة أو فشختين وقد تكاثف إبراهيم عليها برائحة فمه المشهورة جداً بين الأحياء وبإلحاح أكثر بين الأموات.

ولّته الظهر وتوارت داخل كثافة الضباب وهي تشد ربطة منديلها تحت ثؤلول ذقنها وتتمتم بكلمات تشبه الضباب.

تولى المرأة غضب مكتوم من هذا الذي يشبه الشبح، ولم تنظر إلى الخلف إلا على وقع صوت باب بيت إبراهيم يطبش بعنف ثم صوت خشب يطقطق على خشب يطقطق على قيل وقال.

3

رجع إبراهيم إلى الجثة وهو ينفخ في كفيه ويفرك إحداهما بالأخرى.

هي برودة الخارج أو ربما برودة الجثة قد انتقلت إلى جسده الهزيل الذي صار يرتعش بعد أن غادرت الشمطاء. عاد إلى التأفف من منظر هذا البشع الممدد أمامه على الرخام الذي لم يجف بعد من بضع قطرات ماء.

كان حنكه قد ارتخى من جديد.... «يبدو أن شدي لحنكه لم يكن كما يجب». قال إبراهيم وهو يشعل النار تحت إبريق الشاي.

ولّى الجثة الظهر وركز بصره على الخارج الذي كان يراوح بين اللون الكحلي ولون تسلل الضباب. كان الشجر في الخارج يعارك الهواء، وثمة خيوط خجلة تنذر بطلوع النهار.

ليس الموت عند إبراهيم حالة انبهار أو حتى نقطة انقطاع. فهو

ينظر إلى جثته كأنها صناديق فرجة يرى عبرها عالم الغيب، ويرى أيضاً عالم الأحياء.

كان يرتشف شايه وينظر عبر النافذة وفي باله صورة جده الذي كان يحرص على معانقة الجثث العارية وتشبثه بلحم هذه الجثث وتلميع أسنانها وتسريح شعرها وإجراء أحاديث لا تنتهي مع الأموات الذين مروا أمام ناظري إبراهيم منذ البدء.

فهو يتذكر، ربما كان يومذاك في السابعة أو الثامنة من العمر، أن جده كتب يوماً فوق جثة طفل صغير كلاماً كثيراً قال إن الطفل أمره بكتابتها عليه. عمل إبراهيم على شحذ ذاكرته علّه يتذكر ما الذي حدث فيما بعد، لكن ذاكرته تسربت إلى منظر آخر لجده وهو يلقّن أحد الأموات درساً في أصول الموت.

شتت ذاكرة إبراهيم بين تأنيب جده لهذا الميت ثم غمره وتمسيد جسده بحنان. فجدّ إبراهيم كان مصدر أمان لأمواته الذين كانوا يتنسمون فيه خير دليل في رحلتهم الأخيرة.

كان عند نافذة بيته الضيقة يجول بذاكرته في أروقة الجثث الكثيرة التي قد مرّت عليه، ويفكر أن الموت ليس أكثر من حاجة كفيه وكفي جده من قبل لفرك أجساد الأموات.

كان منظر الجبل المقابل لبيته قد أخذ بالانقشاع، وثمّة عشب

يابس يتدحرج وطيور قليلة تركت نفسها تحت رحمة عاصفة آخر الليل وأول النهار.

قبل أن ينجلي المشهد أمام عيني إبراهيم المغبشتين ترامت إلى مسامعه أصوات طرطقة عجلات خشبية تتدحرج فوق الحصى والأحجار.

4

لم يهتم بالمرّة بصوت طرطقة العجلات. ارتشف آخر رشفة من شايه وهو ينظر عبر النافذة إلى الرجال الذين صاروا يظهرون عبر الضباب كالأشباح.كانوا يجرجرون عربة نقل الموتى، وفي بالهم أخذ الراعي الممدد فوق رخام إبراهيم.

كانت العجوز على رأس الرجال تكلمهم كأنها تكلم نفسها فقط. أما هؤلاء فعلامات الغضب والكدر قد تمددت على وجوههم الجافة.

«حسناً- قال إبراهيم- لقد انتهيت».

كان على العربة بعض الطعام. أدخل أحد الرجال هذا الطعام إلى فِناء البيت على وقع صوت إبراهيم يأمر الرجال، بضجر، أن ينقلوا الجثة إلى العربة.

لا يذكر إبراهيم أنه قد كفّن الرجل بالأبيض أو لفّه بحبل القطن. لكن الجثة كانت بغاية الأناقة والتشذيب... «ها هو قد عاد صبياً» قال إبراهيم للعجوز التي لم ترد إلا ببصقة خضراء أتت بها على التراب المبلل بماء المطر.

5

جاء في كتب الطاعنين وألسنتهم أن جدّ إبراهيم كان إذا ما حدّق إلى أحدهم يوقن هذا الأخير أنه قاب قوسين من الموت. جاء في همس طاعني القرية وشيوخها أن جد إبراهيم كان لا يخرج من بيته إلا إذا تأخر الموت في القبض على أحدهم. كان لا يخرج إلا لماماً لحبك خيوط لا يراها إلا هو. حسب دمدمات هؤلاء الشيوخ كان لا يخرج من بيته المنعزل إلا لتأمين قوته من الموت.

عجّل الرجال في نقل الراعي إلى العربة الخشبية وهم يتدارون عن وجه إبراهيم. كان يقف عند عتبة بيته منحنياً يحكّ ذقنه ويبادل العجوز الكلمات حول موضوع له علاقة بطفلين.

«كلا لم يجدوهما بعد»، ردّت عليه وهي تلمن ظلال لعابه بصوتها المخنوق في صدرها.

«هل أنت أصم! قلت لك لم يجدهما أحد بعد»، قالت بعنف وهي تحثّ الرجال على الإسراع في جر عربة الخشب.

كان صوت الأذان الآتي من جهة القرية يتناهى إلى مسامع إبراهيم أثناء ولوج الرجال الضباب، وقبل أن ينهي كوبه الثاني من الشاي قام بوضع فراشه على لوح الرخام وغرق في موجة نوم لا تشبه إلا الموت.

نومه يشبه نوم الجثث. إنه حالك إلى أصفر متردد كأنه ورق شجر الخريف.لا يجيد النوم ليلاً ويكره بشدة ضوء النهار. يحب الليل إلى حد الشغف وتربطه علاقة وطيدة بالسماء الملبدة بالغيوم. كان الطقس الذي جدد عاصفته حول بيت إبراهيم يهدهد سريره حيث يقوم بغسل الجثث، كأنه يهدهد سرير رضيع. بالفعل، فإن إبراهيم ومنذ أول إغفاءة له لا يقدر على النوم إلا إذا وضع إصبعه في فمه وأخذ يمضغها كل الوقت. حتى أن أهل القرية لطالما تساءلوا عن سر اللون الأبيض الذي يكلل أصابع إبراهيم.

لم يسبق لأحد أن رآه نائماً. فما خلا بعض الصبية الأشقياء لا أحد من أهل القرية والجوار يجرؤ على التسلل إلى نوم إبراهيم.

6

يا لقرية إبراهيم!!

تضم قريته عدداً لا يستهان به من البله والمساطيل. توالى هؤلاء على القرية جيلاً بعد جيل... حتى اليوم.

أحد الصبية يشرح أنه رأى يوماً إبراهيم يسير في بيته وهو مغمض العين ويتكلم لغة غريبة.

«ثم ماذا جرى؟» سأل أحد الرجال هذا الصبي الذي لم ينبس يومذاك بحرف، لكنه، وكما لاحظ الرجل، بال على نفسه من شدة الخوف.

عاد الطقس في الخارج إلى سابق عهده من رعد وبرق ومطر كثير، أما إبراهيم فقد كان فوق الرخام كأنه جثة هامدة لولا صوت المضغ الصادر من بين شفتيه ولسانه وإصبعه الطويلة.

كانت العتمة عند أول عتباتها لما فتح عينه الواحدة على

صوت قرع على باب بيته حيث ثمة همهمات تختلط بعضها ببعض وكلب يعوي بصورة غريبة كأنه تعلم العواء تواً.

قام من فوق سريره الرخامي، وتقدم نحو الباب وقد لفّ جسده باللحاف. ما إن فتح الباب حتى تقهقر إلى الوراء، وقبل أن يرد السلام أخذ يستغفر رب العالمين ويتمتم بآيات من الذكر الحكيم. إنه كلب أسود ضخم كان يعوي أمام حشد من الرجال تجمهروا أمام بيت إبراهيم.

كان عواء الكلب يزداد مع تحديق إبراهيم إليه، بينما هذا الأخير ومن داخل بيته يمط رقبته محاولاً التقاط المشهد المكون خلف حشد الرجال.

إنها العجوز الشمطاء تعصر إحداهن بيديها القويتين بينما هذه الأخيرة تنشج بالبكاء والعويل قرب عربة الخشب التي قد احتشدت بجثتي طفلين صغيرين.

«السلام عليكم»، كرر أحد الرجال بصوته المبغوت ببحة خوف. «وعليكم السلام»، ردّ إبراهيم ثم وبعرعرة صادرة من بين أسنانه المشدودة قال: «أبعد هذا اللعين من أمام منزلي» مشيراً بذقنه ناحية الكلب.

7

جاء في أخبار جده أن الكلب الأسود هو من مطايا الجن.

كان ينظر إلى الجثتين الصغيرتين الممددتين الآن فوق الرخام بتؤدة وحذر، وكان يعود إلى كتاب الله يقبّله بين الحين والحين.

رحل الجميع من أمام منزل إبراهيم ولم يخلفوا في المكان إلا بعضاً من قماش ممزق ومنديل مرمي فوق الأرض وفردة حذاء موحلة وصوت المرأة أم الطفلين يتردد صداه في الأرجاء.

كان صوتها يجتاز الوادي ليصل إلى أذني إبراهيم وآذان طفليها الميتين.

لم يشك أي من ناس القرية أن شيئاً أصاب المرأة بعد اختفاء زوجها المفاجىء. كانت تصيح في الليل، وفي النهار كانت تجرجر الولدين على طول الطرقات وعرضها وتسأل المارّة إذا ما رأوا زوجها في الجوار، في أي جوار، كما كانت تقول.

كان زوجها من ذوي القامات الضخمة، وكان يتمتع بقوة جسدية لم يجاره بها أحد. كان يعمل في أحد المقالع الصخرية عند تخوم القرية من جهة الغرب ولم يكن يكلم أحداً لأنه كان أخرس إلا من بعض الحروف. اختفى هكذا كأنه لم يكن البتة. رمى مطرقته الحديدية ورحل.

مات الولدان في النهر بعد أن قامت المجنونة بإغراقهما، كما أخبر أحد الفلاحين. «لكن الرجل، هذا الفلاح، لم ينجب سوى البلهاء من الذكور والإناث، فأي امرأة هي تلك التي ترمي ولديها الصغيرين في النهر»؟! على هذا اتفق بعض عقلاء القرية من الذين ألحُّوا على هذا الأحمق أن يلتزم جادة الصمت، ويكف عما يبقبق به لسانه من قيل وقال..

8

«رووا أن امرأة أتت إلى النبي فقالت له: ابني هذا به جنون يصيبه عند الغداء والعشاء. فقالوا، فمسّ النبي صدره فثغّ ثغة فخرج من جوفه جرو أسود يسعى».

كان إبراهيم يفرك إحدى الجثتين ويلهج كل الوقت بالصلاة على سيّد المرسلين وفي باله الكلب الأسود الفاجر الذي كان يعوي كمن يخبر بشيء. غمرت قلب إبراهيم الفاجعة وانصرف بكل حواسه عن الجثتين وعاد بذهنه إلى جده القديم.

ربما كان في الرابعة عشرة أو الخامسة عشرة من العمر يوم خرّ جده راكعاً أمام جثة شاب يافع مات نتيجة عضّة كلب أسود. تذكر إبراهيم كيف ترك جده الجثة أياماً دون أن يمسها بقطعة قماش أو حتى برشة ماء. كان جده يومذاك على عياء شديد وكان متيقناً أن جناً ما يسكن أحشاء هذا القتيل.

انصرف إبراهيم عن كل ما يعتوره من خوف وعاد إلى الجثتين اللتين بين يديه يتحسسهما ويراقب نضارتهما واللون الأزرق تحت عيونهما مستأنساً بما جادت عليه ذاكرته من آيات وأحاديث. لكن..... وكما ردد جده في ذلك اليوم: السود من الكلاب الجن.

نفض يديه عن إحدى الجثتين التي شعر إبراهيم بحركة صدرت عنها وثمة نفس حار خرج من بين الشفتين.. «لا إله إلا الله.. أعوذ بالله من الشيطان الرجيم» وتقهقر خطوتين إلى الخلف.

عادت صورة جده الخائف تحتل مساحة وعيه المتذبذب وتختلط برائحة جثة الشاب الذي قد عضه الكلب. انتابت الرهبة إبراهيم فألزمته الصمت والترقب وصوت جده الخائف من ذلك الشاب اللعين.

لم يتعود إبراهيم في أيامه ولياليه خوف جده من الجثث، بل تحسب أن الميت بين يديه عجينة يشكلها كيفما يشأ. لكن الأسود.... الكلب الأسود من مطايا الجن والشياطين!!

انخلع قلب إبراهيم وتبددت صورة جده من بين ثنايا ذاكرته وقد قح أحد الولدين من فوق سرير الرخام. فتح الصبي عينيه ثم شهق وعاد فمات.

تصلب إبراهيم في مكانه كأنه جثة منتصبة إلى انحناء بسيط.

اختلس نظرة إلى النافذة الصغيرة ليرى أن العتمة قد لفّت الأنحاء وثمّة سبات كأن الريح قد غاصت في لجة النوم. امتقع وجهه بمدّ من السكون المضطرب؛ وعادت إلى رأسه صورة جده الذي نادم يوماً أحد الأموات حتى الصباح.

كان يومذاك في العاشرة من العمر حين ردت الروح بغتة إلى أحد الأموات أثناء تسريح شعره الطويل.

لا يذكر إبراهيم التفاصيل باستثناء أنه رمى بالمشط وعجّل الجري إلى غرفة أخرى حيث كان جده.... أكفاناً وأموراً أخرى..

تلاشث ذاكرة إبراهيم بين جريه المذعور إلى جده وهذا الجد الذي. .. حاول تحرّي المشهد لكن صورة الولدين الممددين على الرخام أمامه استباحت كل صور الماضي البعيد.

9

كان صوت المطر في الخارج ينهمر كأنه يوشوش أو يهمس بالأسرار. لم تبرق السماء ولم ترعد البتة. إنما صوت المياه المنهمر هيّأ في رأس إبراهيم الإسراع في غسل الصغيرين، فهو على كل حال بحاجة ماسة إلى الجوز والعنب والعسل والملح.

لم تكن أم الولدين مع زمرة المشيعين. هم أربعة أو خمسة رجال والعربة الخشبية وتلك العجوز الشمطاء تحمل في يدها جوزاً وعنباً وعسلاً وملحاً.

«يبدو أن والدة الطفلين أسرفت في كرمها عليك»، قالت الشمطاء بنبرة تنم عن سخرية وهزء. لم يرد على المرأة بشيء. اكتفى بأخذ الطعام من بين يديها ثم أغلق الباب بإحكام، وجعل يستنشق رائحة الريحان والبخور المنتشرة داخل أرجاء البيت.

10

«إنّ أمتين مسختا، هما الحيات والكلاب»، قال جده وهو يلف التبغ فوق جثة تبلغ المائة من العمر. لم تكن جثة رجل ولا جثة امرأة بالتأكيد. لم تكن سوى جثة على ما يذكر إبراهيم.كان جده يزيل التبغ عن بطن الجثة بعد أن نشره هناك كي يجفّ بعض الشيء.

«إذا نبحت الكلاب وجاوبتها ذئاب الجبال، قال جد إبراهيم، فسيكون هناك أوبئة وجوائح مهلكة». لم يكن جده عرافاً أو من أصحاب الكهانة والتبصير، لكن للموتى حكمتهم التي تتسلل خفية من بين الشقوق والفتحات لتتلقفها «نحن يا إبراهيم»، حسب قوله القديم.

«نعم، إن الموتى يعلمون ما يعجز كل حكماء الأحياء وشيوخهم عنه. لهم باب إلى الأسرار من نعم سيد السماوات

والأرضين علينا أنه قد خصّنا به يا صغيري يا إبراهيم. تعلّم كيف تنصت جيداً إلى حكايا الموتى، ولا تنسَ ذكر الله كلما أتى ميت إليك. فالأموات يحبّون ذكر الله والاستئناس يتجاويف حروفه وانبساط كلماته جلّ وعلا».

عندما كان إبراهيم صبياً كان يظن أن الله كتاب مفتوح يعج بما لا نهاية له من كلمات. فهو كان لا يرى إلى جده إلا وكلمات العلي القدير تزيّن لسانه مع كل جثة يغسلها. لم يتوقع الصبي إبراهيم أي فصل أو مسافة بين الله والكلمات وجثث جده التي لا تنتهي. حتى أنه في أحد الأيام، وفوق سطح المنزل من جهة المدخنة السوداء، سأل جده عن عدد كلمات الله.

ـ كلماته جل وعلا كثيرة.

ـ هل هي بقدر الجثث؟

ـ لست أدري!! رد عليه جدّه بحنق وهو ينزع ألواح الطوب من حول المدخنة السوداء.

11

تناهت الأخبار إلى إبراهيم أن القرية لم تنظّم جنازة الطفلين وساد القرية هرج ومرج. تخلخلت الكلمات داخل رأس إبراهيم الأبيض وفجّت لسانه بالطول والعرض.

ربما كان في السادسة عشرة من العمر يوم قرر الصمت أن يحتل لسانه ويمكث فوق شفتيه شهوراً. في البدء- على ما يذكر- احتار جده العمل وكان يحثه على النطق تارة بالشِّدة وتارة باللين.

لا يتذكر إبراهيم أسباب نوبة صمته الطويل. لكنه حتى هذا اليوم يشعر بالقشعريرة ويرتجف حين يتذكر الخوف الذي أخذ بتلابيبه أثناء ذلك الصمت الذي باغته من الخلف. نعم، فهو وبعد أن عاود الكلام رد على جده حين سأله عن أسباب خرسه بالقول: «لست أدري، غدرني الصمت كمن يهاجم من الخلف». يتذكر إبراهيم أن جده كان يتلو الكتاب فوق رأسه من آن لآن عله يخرج

الشيطان الذي قد ركب « لسانك يا إبراهيم. فإبليس الذي يجري من الإنسان مجرى الدم من العروق، يتطاير أمام كتاب الله» حسب قول جده. لكن الخرس آنذاك موّه وجود إبراهيم بهرج ومرج وفوضى كثيرة وبكوابيس تقشعر منها الأبدان. لا يدري ماذا دهاه. خاف من الكلمات فابتلعها إلى قعر جوفه، أو فرّت منه.

كان لا يرى إلى نفسه أثناء نومه إلا بوجه بلا فم ومجرد أنف ثم ذقن ثم رقبة وكتفين.

«هذا كل ما كنت عليه»، يقول إبراهيم لنفسه على وقع الأخبار الآتية من القرية حيث الصمت والفوضى والهرج والمرج. فجأة ومن حيث لا يدري استفاق جده على صياحه، وكان الوقت قد تجاوز منتصف الليل.

فم ضخم يزحف فوق أرض المنزل بأسنانه الناصعة البياض، ولسان أحمر طويل التهم جده العجوز.

« إبراهيم..... يا إبراهيم، ماذا دهاك يا إبراهيم؟».

«إنّ كيد الشيطان كان ضعيفاً».

يتذكر إبراهيم أن جده العجوز ارتعب من وسع عينيه عندما أيقظه من هذا الحلم، وكان كل الوقت يلجلج بملء الصوت بما أجاد الله به عليه من نعم قوله الكريم: « إن الشيطان لكم عدوّ فاتخذوه عدواً»، «وكان الشيطان للإنسان خذولاً».....الشيطان.... الشيطان....الشيطان..

12

«سحقاً لك من كلب أسود لعين» غمغم إبراهيم وقد وقف على ما جرى أثناء دفن الطفلين.

احتار شيخ القرية إذا ما كانت الرحمة تجوز على هذين الولدين أم لا. فموتهما سبب إشهار عورة أمهما أمام نساء القرية ورجالها وأمام الشيخ. تناهى إلى إبراهيم أن النسوة لم يستطعن كف المرأة المجنونة عن الذهاب إلى الجبانة في آخر القرية من جهة الشرق. قفزت من بين أيدي النساء ودخلت إلى قلب الغابة حيث الصخور هناك تشبه الأشرار من الرجال. طاردتها بعض النساء لكنها توارت واختفت خلف صمت لسانها وخلف رجال الصخور هؤلاء. أسقط من أيدي النساء، فانصرفن عن التفتيش عنها وعدن إلى منازلهن خائبات.

كان الشيخ عند أول صلاته فوق الجثتين الصغيرتين حين انبثقت المجنونة فجأة من بين دغل صغير وكانت عارية تماماً.

لم تغطِّ سوى رأسها بمنديل قد غمسته بالوحل، وكانت حافية القدمين، وجراح كثيرة تغطي جسدها النحيل.أعرض الشيخ عن المرأة وقام بإغماض عينيه، أما بقية المشيعين فقد تحرّوا الابتعاد عنها وهم يسترقون النظرات وأفواههم فاغرة وأيديهم كثيرة يضعونها فوق آذانهم والعيون.

سجدت المجنونة عند كعب الشيخ متوسلة إليه ليدفنها مع الطفلين. لكن الشيخ استنجد بالله وتوجه إلى جمهرة المشيعين يقرأ عليهم: «إنما ذلكم الشيطان يخوّف أولياءه فلا تخافوهم». جعل الشيخ يردد الآية الكريمة بملء الصوت مرّة بعد مرّة، ومع كل تلاوة كان يعلي الصوت أكثر مولياً المرأة أذنه الصمّاء، بينما تلك متشبثة بقدميه كأنه واسطة البقاء مع الصغيرين الميتين.

«إذا نبحت الكلاب وجاوبتها ذئاب الجبال، فسيكون هناك جوائح كثيرة»، قال إبراهيم لنفسه وقد علم أن تلك العجوز الشمطاء وجدت بين الرجال فجأة وكانت تحمل بطانية سوداء ورفشاً. نظر الشيخ إلى الشمطاء ساهياً ثم تلا همس غير واضح الكلمات والحروف وهو ينظر إلى الشمطاء تشجّ رأس العارية بالرفش.

«أدخلوا في السلم كافة ولا تتبعوا خطوات الشيطان» قال الشيخ كأنه يوشوش الناس مخافة أن يسمعه أحد.

رزحت القرية أكثر من شهر تحت صمت يشبه عناد البغل بعد حادثة المقبرة وما قد جرى هناك. أما إبراهيم فكان طوال هذا الوقت مكتفياً بما جاد عليه موت الطفلين من عنب وتين وعسل وملح. لم يكن يرى إلا بعض الصبية من الذين يختلسون النظر إليه عبر نافذة بيته الصغيرة، ومن آن إلى آخر كان يبادل مجاذيب القرية نظراتهم الخرقاء عبر هذه النافذة.

13

دُفن خبر المجنونة وطفليها مع وضعهما تحت الأرض ولم يبق أثر ليذكر على لسان أي واحد من الناس. فمع آخر حبة تراب فوق جثتي الصغيرين نظرت الشمطاء إلى الجميع وقالت: «ليس هذا إلا وهم. كل ما رأيتموه هنا هو محض خيال».

سار الرجال يومذاك خلف العجوز الشمطاء مطأطئين وقد لفهم الصمت ما عدا الشيخ الذي كان كل الوقت يتمتم: «ومن يتخذ الشيطان ولياً من دون الله فقد خسر خسراناً مبيناً».

عادت المواسم إلى القرية بعد مرور شهر واحد على الوهم الثقيل الذي أناخ بكلكله هناك على الأحياء وربما أيضاً على الأموات. أما الشيخ، وبعد مرور أربعين يوماً على رؤيته العورة المجنونة، استعاد بعضاً من عافيته وكفّ عن هلوسات داهمته

وعن ثرثرات لا تمت إلى واقع العقلاء من الشيوخ بصلة. مع نهاية الأربعين يوماً عاد يقرأ الكتاب جهاراً ويؤم المصلين يوم الجمعة ويخطب في السيرة النبوية الشريفة بحماسة غير مشهودة. لكنه، وكما همس في أذن الشمطاء سراً، صار يعاني زيغاناً في البصر وقلة انقشاع: «لا عليك،جاوبته الشمطاء، هو بصرك يخجل منك، وهذا من نعمة الله عليك».

14

لا تستوي الصحة مع المرض في أي مكان من العالم إلا في قرية إبراهيم، بل ليحسب المرء أن الآفة في هذا المكان النائي هي نعمة من العلي القدير، وامتحان لسرائر أهل الكرامات ممن أجاد الله عليهم بسعة البصيرة ومعرفة الأسرار...

تحوّل الشيخ الضرير هناك إلى ولي يؤمه الناس وإلى صاحب كرامات ولمس. لم يشاطره القداسة أحد بعد نعمة غلق العينين وانفتاح البصيرة وقراءة الغيب وكشف الظنون. لقد صرع الشيخ الشيطان، قالت العجوز للرجال والنساء، فإذا به يصير من أهل البصيرة كما وعد جلّ وعلا في الكتاب: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُوا۟ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ﴾.

نعم ففي أسفل الوادي عند آخر القرية من جهة المغيب نظرت العجوز إلى الفلاحين وقالت: «وقل ربّ أعوذ بك من همزات الشياطين»، وكان ذلك في اليوم الأخير من أيام الزيتون في قرية إبراهيم.

15

استهل إبراهيم ليلته بدعاء كان يردده جدّه مع كل هطل للمطر.

كان يتمتم الدعاء بصورة آلية كأني بجده يلقمه إياه ويتلوه عليه ليل نهار: اللهمّ أعنّا غولة الماء وبطن المطر. اللهم زيّن جنائني بلطف مطرك وجنّب مواسمي جنون الشتاء. اللهّم لاقني بماء سمائك عند أول الموت وانقلني بمركبك فوق لطيف الموج... إنك أنت العلي القدير.

كان إبراهيم يردد الدعاء وهو يختلس النظر إلى جنون العاصفة التي بدأ صوتها كأنه عزيف الجن.. اللهم أملأ صدري بالإيمان بك ورتّب سواقيّ بحنو مائك.

اللهمّ أرشدني تجنّب الفيض وخلّني من أصحاب نوح الأعزاء... إنك أنت العلي القدير.

كان، وقد التفّ بلحافه السميك، جالساً أمام الموقد يتأمل النار ويهز جسده إلى الأمام وإلى الوراء، وينصت إلى جدّه يقول: اللّهم قيّد شياطين المطر. اللّهم جنّب بيتي العاصفة وألهمني السلوان عن جن الشتاء... سبحانك أنت العلي القدير.

هدأت العاصفة وانكسرت شوكة الشتاء وقد « منّ الله عليّ بدعاء جدّي صاحب القدرات».

نعم، إنّ إبراهيم كان يرى إلى جده كإنسان خارق، يقرأ البرق ويؤنّب الرعد ويقول في المواسم الصواب. ربما الموتى هم من ألهم جده هذه القدرات، ربما هؤلاء ومن مكانهم القصي يهدون الأحياء ممن يحبون، حسن التدبر ورؤية المآل.

هدأت العاصفة حتى النوم إلا إبراهيم الذي كان ينظر إلى ناره وينصت إلى الأصوات المتسللة من الخارج إلى داخل البيت.

16

إنه ليس وقت الحمير، قال إبراهيم مخافتاً صوته في صدره.

أجل، هو حمار كان ينهق دون انقطاع وكان كأنه يسير أو يركض أثناء هذا النهيق الفضفاض.

هرش إبراهيم رأسه واتخذت تعابيره علامات الحيرة إلى الخوف والانقباض.

«إذا سمعتم صياح الديكة فاسألوا الله من فضله، فإنها رأت ملكاً. وإذا سمعتم نهيق الحمار فتعوذوا بالله من الشيطان، فإنه يرى شيطاناً». عاد صوت جده يخترق أذنيه من جديد فيتأكد أن ثمة شيطاناً في الجوار يجوب القرية و. .

نظر من مكانه إلى السرير الرخامي ثم إلى عارضة خشبية تستوي عليها طسوت مياه غسل الأموات وإبريق مياه الريحان وأشلاء القماش الممزق وألواح مبعثرة من الصابون.. ومن حيث

لا يدري نظر إلى شبح يشبه شيخ القرية الضرير فاغراً فاه وممداً بعينيه البيضاوين على سرير الرخام البارد.

جاء في أقوال الأولياء أن الكعبة سرة الدنيا. وجاء في أقوالهم أيضاً أن الولي سرة المؤمنين.

قام إبراهيم من مكانه أمام الموقد وتوجه إلى الرخام يمسحه بزيت معطر. أوقد النار تحت أوعية ملأها بالماء وسكب لنفسه كوباً من الشاي يرتشفه ببطء. اقتعد كرسياً أمام النافذة وجعل يترصد أول انشقاق الفجر... وذلك بعد أن أعدّ الكفن. جلس هناك ينتظر منصتاً إلى طقطقة الحطب.

قال جدّه يوماً: «إذا أنبأك رب العباد أن أحدهم سوف يأتيك ميتاً، لا تخف ولا ترتدع، فهذا من علامات رضا الله عليك. يوم يصير لك الموت رفيقاً يزف لك خبر عرسانه وما عليك سوى الانتظار».

كان يرتشف الشاي وفي باله ملمح جدّه الذي جلس ثلاثين يوماً ينتظر موت أحدهم ممن لا يمكن الظن البتة أن موته صار قريباً.

ربما كان في الثالثة عشرة من العمر لما رأى إلى جده يعدّ الكفن لشاب قوي، ويعدّ أيضاً خليط الروائح التي تحاصر رائحة

الموت. صار يعد الأيام يوماً بيوم وفي اليوم التاسع والعشرين سأل راعياً كان يمر أمام بيته مصادفة: كيف حال ابنك الشاب؟

يتذكر إبراهيم أن الراعي لم يرد على جده الجواب، لكن، وبعد مرور يوم واحد على هذا السؤال الفاجعة كان الراعي المسكين يجرجر ابنه مع بعض الرجال إلى ذاك الرخام الفسيح.

قيل إنه مات بلدغة أفعى أو لسعة عقرب أو ربما برفسة حصان، يتذكر إبراهيم كيف حمل الرجل ابنه وسأل جده أن يحدّق إلى عينيه. «أرجوك أن تنظر إليّ، أرجوك أن تلتهمني بعينيك»، بهذا كان يصيح الراعي في أذني إبراهيم من خلف تراكم الأيام والسنوات. لكن الجد.....

لا يتذكر إبراهيم إلا أنّ هذا الراعي ترك القرية وهجّ لا أحد يدري أين..

17

الذاكرة تارة حمل وديع وتارة ثور هائج. الذاكرة حيوان يقول إبراهيم، إما هر وإما ضبع.

هو يضيق باستبداد ذاكرته به ومخالطتها أيامه كيفما تشأ. لا يمكن ترويض الذاكرة أو تمسيد وبرها بتحنان. كان ينظر إلى آخر الليل ويقلّب الصور في رأسه أو هي تقلّبه.

كان مسمَّراً فوق كرسيه يتطلع إلى أول النهار، تلوكه الذكريات.

الذاكرة أفعى... الذاكرة كلب، قال إبراهيم مخافتاً، تفح في الأذنين وتنبح بصوت مرتفع. «حسناً. .. ها قد وصل الشيخ» قال وهو يهم بالانتصاب.

كانت الجماعة، جماعة القرية، تجر الشيخ بواسطة العربة الخشبية وقد تناهبت الوجوه ملامح الحزن الشديد وملامح التقزز

والقرف. كل ناس القرية كانوا خلف الشيخ الضرير يجرجرون أقدامهم مع جرجرة الإطارات الملتوية. حتى النسوة والمجاذيب وأولئك الأولاد الأشقياء كانوا متحلقين حول شيخهم المتوفى بهدوء.

ما إن وصلت العربة أمام باب إبراهيم حتى تزاحم الرجال وتدافعوا كي ينالوا ثواب نقل الجليل إلى مساحة الرخام. كان إبراهيم بعينه الواحدة يراقب الجمع ولم يكن قد تسنّى له بعد النظر إلى وجه الشيخ. أربعة أو خمسة رجال من ذوي البأس الشديد تمكنوا أخيراً من حمل الجثة الطاهرة ونقلها بسلام إلى داخل منزل إبراهيم، لولا....

كل الناس استغفروا الله وقد تزحلق أحد الرجال فوقع عند عتبة إبراهيم وأوقع معه بقية الرجال. تدحرجت جثة الولي فوق التراب الموحل لتستقر أخيراً عند العجوز الشمطاء. كانت تغطي أنفها وفمها بمنديلها المتدلي من فوق رأسها، وكانت تراقب تدحرج الشيخ الذي استلقى عند قدميها المعفرتين. حدّجت الرجال بنظرة حادّة، ثم انحنت فوق الشيخ وحملته على كتفها اليسرى وولجت بيت إبراهيم ولبدت الجثة فوق الرخام.

أرخى الصمت بظلاله للحظات ثم انقطع على وقع طرطقة

باب بيت إبراهيم الذي أغلق بإحكام شديد.تدارى أولئك الذين قد أوقعوا الجثة النظر إلى وجوه الناس الذين كانوا ينصرفون تباعاً كأغصان يابسة يجرها طفل.

كانت الشمس تتسلل عبر نافذة إبراهيم التي كان يتسلل عبرها أيضاً وجه واحد من المجاذيب. رمق إبراهيم هذا المجذوب بنصف لفتة من وجهه فإذا به يولي الإدبار بخرقه وهلاهيله وحذائه الممزق.

18

لا اسم لهذا المجذوب لكنّه يلقّب «بالسحاب». فهو كالغيم، يمكن رؤيته في أي مكان في القرية، كأنه غيمة في السماء، هو الابن الأول لأهله، ماتت أمه أثناء ولادته أما أبوه فقد مات قبل موت أمه بقليل وتناوب على تربيته كل ناس القرية وسهوا عن إطلاق اسم عليه. حين صار طليق اللسان سأل أحدهم على الطريق: ما اسمي أنا؟ لكنه لم يلق جواباً حتى استقر الأمر على تلقيبه بـ «السحاب».

رفع إبراهيم الغطاء عن وجه الشيخ فرآه كما كان قد رآه. حاول إطباق جفنيه وإخفاء بياض عينيه لكنه فشل. إنها جثة بغاية القبح. همس إبراهيم، الذي فشل أيضاً في إطباق الفم الغائر.

«عجباً... كأني بهذه الجثة متشبثة بما تحفل به مما لا يمت إلى خلق الله بصلة». كان غيم البخور يسبح في أرجاء الغرفة ليكشح

قدر المستطاع نتانة جثة الشيخ الولي. لم يكتف إبراهيم بحرق البخور، فهو حرق أيضاً نبات الصندل الذي عادة ما يخصصه للمتوفين من العرسان.

كانت عين إبراهيم الواحدة ترمق هشاشة العينين البيضاوين للشيخ، وترمق أيضاً العتمة الحالكة الآتية من داخل الفم المفتوح.

«هل حقاً هذا واحد من أولياء الله»؟، سأل إبراهيم مستغفراً.

«هل أنت سرة مؤمني القرية وحبل نجاتهم عند رب العباد؟».

ارتجفت يداه وهو يخلع ملابس الجثة لحظة سؤاله هذا السؤال. عمت الرهبة قلب إبراهيم وصار ينصت إلى جده أذناً بعد أذن.

احتل جده مساحة نظره متخللاً صورة الشيخ الضرير. رمى بالصابون من يده، تقهقر عن الجثة خطوتين وأخذ يتأمل الدخان المتصاعد من أحد الطسوت.

19

«كنا جلوساً عند النبي (صلعم) فجاءه رجل من أقبح الناس وجهاً، وأقبحه ثياباً وأنتنه ريحاً. جاء فتخطّى رقاب الناس حتى جلس بين يدي رسول الله (صلعم).

فقال: من خلقك؟ قال: الله.

قال: من خلق السماء؟ قال: الله.

قال: من خلق الأرض؟ قال الله

قال: من خلق الله ؟ قال: سبحان الله.

وأمسك بجبهته وطأطأ رأسه، وقام الرجل فذهب. فرفع رسول الله(صلعم) رأسه فقال: عليّ بالرجل فطلبناه، فكأن لم يكن، فقال: هذا إبليس..».

انتفض جسد إبراهيم مع بقبقة الماء الذي صار يغلي في كل الطسوت، ثم أخذ يتلو مع جده: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ

﴿لَاتَّبَعْتُمُ ٱلشَّيْطَٰنَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ صار إبراهيم يتلو مع جده متأتئاً، متحاشياً النظر إلى تلك الجثة التي فوق الرخام.

«بماذا يريد أن يبوح لي هذا الرجل»؟.... «بماذا يريد أن يكلمني هذا الفم الغائر كالليل»؟، سأل إبراهيم وهو يفتح درجاً كبيراً ويسحب منه سكيناً مسنناً هو إلى المنشار أقرب.

كانت إحدى العينين قد انغلقت مليمترات بينما الأخرى جحظت أكثر ببياضها المائل إلى الرمادي الشفاف. مرر إبراهيم سكينه فوق شعلة النار بتأن حتى شعر بسخونة النار قد تسللت إلى أصابعه المرتجفة عند قبضة السكين.

«العين مرآة الروح، يا إبراهيم، قال له جده يوم كان في التاسعة من العمر، ثمة العين الشريرة، العين التي تبوح بأسرار الله وتلك التي لا تقول إلا ما يقوله اللسان، وهي عين العاديين من البشر».

كان يمرر السكين داخل النار على وقع انفلاش ذاكرته وانبساطها أمامه كأنها سهل. كان في التاسعة من العمر يوم قرر جده أن عيني ميت عجوز ستحجبان عنه ملائكة الموت حين يصير تحت التراب.

رأفة بهذا العجوز المسكين فتح جدّه يومذاك درجاً عريضاً وأخذ منه سكيناً وصار يمرره فوق النار.

20

«أين عينا الشيخ؟» سألت العجوز الشمطاء.

كان بقية أبناء القرية محتشدين خلف المرأة العجوز كأنهم امتداد متعرج لها.

«استغفري الله، خذي الشيخ وارحلي»، قال إبراهيم.

كانت علامات النعاس قد أخذت بالارتسام على وجهه الشديد البياض، وكان بصوته بحة من لم يذق الماء منذ أيام طوال.

أولئك الذين أوقعوا الجثة لم يكونوا بين الجمع الذي احتشد بغالبية مجاذيب القرية وعدد لا يحصى من الأولاد.

كان «السحاب» يتلصص على الجميع من خلف شجرة صنوبر، يهسهس، ماطاً رقبته كمن يحاول أن يخبر الشمطاء بأمر ما. لم تعره هذه الأخيرة انتباهاً، وكانت كل الوقت تحدق إلى وجه

الشيخ الخالي من العينين، وتحدّق أيضاً إلى فمه المحشو بالقطن وورق الزيتون. غطّى إبراهيم رائحة الجثة بكفن بلّله بماء الصندل، ورائحة أخرى تشبه رائحة التراب.

كان «السحاب» يزيد من هسهسته خلف شجرة الصنوبر لما تهيأ أهل القرية لأخذ «مولانا» إلى القرية وإجراء مراسم دفنه هناك. صار «السحاب» يقفز خلف شجرة الصنوبر ويتأتىء بكلام غير واضح ويشير بيديه إلى داخل بيت إبراهيم. نهر أحد الرجال « السحاب» كي يلتزم الهدوء والصمت. تسمّر في مكانه كأنه هيكل قديم ولم يتحرك إلا عندما أشاح إبراهيم عينه الواحدة التي كانت تحدجه بإسهاب.

شارك «السحاب» زمرة المشيعين في أخذ الشيخ إلى مثواه الأخير، لكنه كان على غير عادته، بغاية السكون والشحوب، وكان في شكله ما يشبه الرخام.

بالإضافة إلى ديك مذبوح وعشر بيضات، زوّد أهل القرية إبراهيم ببطانية صوف عليها بعض من رائحة الشيخ المرحوم. رمى إبراهيم بالبطانية في الموقد الذي قد استعرت ناره. كانت ألسنة اللهب تخرج من موقد إبراهيم كأنها ألسنة عفاريت. كانت تعارك مكانها المتوقد كأنها تبغي القفز من داخل النار.

راقب نيران موقده بروية وتمهل، ولما استكانت رمى في بطنها قطعة قماش صغيرة تحوي عينين شديدتي البياض. رمى إبراهيم بقطعة القماش في جوف موقده المحموم ثم تمدد فوق رخامه يمضغ إصبعه متهيئاً للنوم.

21

«سئل رسول الله: أينام أهل الجنة؟ قال: لا. النوم أخو الموت والجنة لا موت فيها».

لا يذكر إبراهيم أنه رأى يوماً إلى جده نائماً.كان يمضغ سبابته فوق رخامه الوثير وكان يجول ببصره في أرجاء الغرفة من السقف إلى الجدران ثم من الجدران إلى السقف وهكذا دواليك.

كان الصمت سيد المكان باستثناء صوت المضغ الذي كان يخالط باستحياء بقية صوت موقد إبراهيم.كان الجمر في الموقد يتلألأ فيبادل إبراهيم نظراته، وكان كأنه ينتظر نوم إبراهيم ليرقد هو أيضاً بسلام. لكن إبراهيم لم ينم وقد باغته جده بأبد عينيه المنفرجتين.

لا يذكر لون عيني جده الواسعتين. لا يذكر من عينيه إلا بقية

رموش هي أقرب إلى الاضمحلال، ويذكر أيضاً أن إحدى عينيه كانت دائمة النزف لسائل ما، ليس هو بالدمع ولا بالدم. هو سائل كان يزداد مع أول الصيف ويجف أيام البرد والصقيع. سأل إبراهيم جده يوماً عن سر بقائه مستيقظاً وعدم رؤيته إياه نائماً في أيّ يوم!! لا يذكر إبراهيم الجواب، لكن صوت جدّه يرنُّ الآن في أذنيه وهو يقول: «النوم أخو الموت... النوم أخو الموت... النوم أخو الموت...» كان جده يلحّ عليه فيؤرق عليه نومه على الرغم من كل النعاس.

صار يتقلب فوق فراشه ذات اليمين وذات اليسار، وصار يزيد من وتيرة مضغه علّ النوم يستجيب لعينه الواحدة التي تلهث هرباً من رموش جده الرقيقة ومن انفراج عينيه. تحول دفء فراش إبراهيم إلى قشعريرة برد، وثمة عرق عند أصابع قدميه الباردة كان يحث ذاكرته العريضة كي ينصت إلى جده يقول: « النوم أخو الموت... النوم أخو الموت... النوم أخو الموت....»، أشاح بوجهه عن الحائط وصوّبه ناحية الموقد الذي صار خالياً إلا من نتف جمر وفائض رماد. قام من فوق رخامه وفي باله كوب من الشاي وإعادة إحياء النار.

22

ها قد ولّى النهار وحلّ الليل ولم ينم إبراهيم إلا لحظة أو لحظتين. شاهد في نومه «سحاب القرية» يتلصص عبر النافذة الصغيرة أو ربما هو قد شاهده بالفعل... حتى إبراهيم لا يعرف.

اختفى «السحاب» من سماء القرية وأزقتها وصار لا يشاهد إلا بجوار بيت إبراهيم. تارة خلف تلك الشجرة، تلك الصخرة، تلك التّلة، وتارة جامداً يحدق إلى باب البيت العتيق.

«جاء في الحديث الشريف أن النبي (صلعم) سأل إبليس: كم أعداؤك من أمتي؟ قال: عشرون نفراً، ذكر منهم المستعد للموت».

ولا مرة بادل «السحاب» إبراهيم الحديث أو الكلمة أو النقطة أو الحرف.أما إبراهيم فلم يكن من أمره إلّا التحديق إلى وجه «السحاب».

أيّ من ناس القرية من الذين يعلمون بمياومة « السحاب» لجوار إبراهيم لم يتفوّه بأي شيء. حتى العادي من الكلام كان يُهمس به همساً في تلك الأيام. كان الكل متواطئاً مع الكل على ضرورة الصمت إلا من بعض الهسهسة أو الحكي بواسطة العيون.

باستثناء العجوز الشمطاء، لم يجز أي شخص لنفسه أن يعرّج إلى جوار إبراهيم أو الاستفسار عن جوار هذا الجوار. كانت تطل من بعيد، من خلف دغل أو شجرة أو صخرة صمّاء تراقب «السحاب» ثم تغادر وهي تتمتم بذكر علّام الغيوب الذي بيده مواقيت الناس، والذي يعلم أسرار الأحياء وأسرار الموتى ولا يطاله السهو أو لحظة نوم.

...وفي اليوم الأخير تقدم «السحاب» من بيت إبراهيم ورمى بنفسه عند عتبة هذا البيت. كان وجهه ممتقعاً بمدّ من الرهبة والخوف، وكان صوت أنفاسه المتقطعة يمزّق صمت منتصف الليل.

كان إبراهيم قد هيّأ رخامه، وهو الآن يرتشف شايه قرب الموقد السعيد الذي يعجّ بالنار عجاً. بعد مضي ثلاث ساعات على رقدة «السحاب» الذي كان عند بابه، قام إبراهيم وفتح الباب ثم حمل جثّة «السحاب» التي غادرتها الروح تواً...

لم يتزيّن موت «السحاب» سوى بالسماء المرصعة بالنجوم ودفء جثته التي حضنها إبراهيم بحنو وتوجه بها إلى منصة الرخام.

اقشعر بدن العجوز الشمطاء خلف وحشة الدغل الذي غادرته مضطربة بعد أن حدجها إبراهيم بعينه الحمراء وهو يشيل الجثة الساخنة عن الأرض.

23

بماذا يهمس الأموات بعد موتهم بلحظات؟ لعلهم يهمسون بكل شيء، ويسمعون كل شيء، ويستنشقون كل شيء، ويتذوقون كل شيء. ولعل أجسادهم تتلقف أناملنا ونظرات عيوننا أكثر من تلقف الأجساد الحيّة لهذه الأنامل وهذه النظرات.

ينقل إبراهيم عن جدّه أن جسد الإنسان لا يتحقق بتمامه إلا لحظة الموت. «نعم، قال جدي إن كل الحواس تتوقد لحظة مفارقة الروح الجسد». ثم ماذا يجري؟ سأل إبراهيم الصغير فاغراً. لا شيء! قال جده.

لا يتذكر إبراهيم تفاصيل حديث جدّه يومذاك لكنه يذكر أن جده قال بيقين: «إن اهتراء الجثث هو اضطراب يصيب الذاكرة والحواس» سبحان الله، قال جده، وهو يغسل جثة رجل أكل الاهتراء أنفه قبل موته بشهور وأيام وساعات ولحظات..

كان «السحاب» فوق الرخام بمنتهى الهدوء. كان كالنائم دون أدنى شحوب أو اصفرار، كأني به عندما مات قد عادت إليه الحياة.

تذكّر إبراهيم النار المتوهجة تحت طسوت مياه الغسل وصار يستغفر الله السميع، المجيب، البصير الذي لا تأخذه سنة ولا نوم.

ارحموا موتاكم بأن تغسلوهم بماء أقرب إلى الفتور، كان جده يردّد على الدوام.

لم يكن وجه «السحاب» ينم عن أيّ موت، بل كان على شيء من التورد والبهجة والنشاط.

«سبحان ربيّ الأعلى قال إبراهيم، يا لهذا الميت الجميل».

«إذا أتاك ميت يتهلل وجهه بالضياء، صلِّ ركعتين يا إبراهيم، فإنّ ملائكة سدرة المنتهى تحوم حول هذا الميت»... أيضاً وأيضاً ها هو صوت جده الميت الذي لا يموت ولا تأخذه غفلة نوم.

شرع إبراهيم بنزع ملابس «السحاب» الحقيرة وهو يتلو بعض آيات الذكر الحكيم. كان جسد «السحاب» فوق الرخام على اشتداد متين وثمة تقاسيم كأن هناك من نحت هذا الجسد نحتاً. صار يتحسس الشعر على جسد «السحاب» والممتد كأنه خيط منضبط من حول سرّته إلى مساحة صدره حيث ينتشر هناك كأنه فيض من رغو معطر، أو قطن أو صوف حميم. أغمض إبراهيم عينه الواحدة وهو يتلمس الجسد الغض، وكانت كفه فوق خيط الشعر المنضبط لا تكف عن المجيء والرواح.

24

كان إبراهيم في السابعة أو الثامنة أو التاسعة من العمر يوم تسلّق شجرة تين وأخذ يبكي بصمت. كان جده العجوز جداً قد آلمه دون أن يعرف السبب. فذاكرته تمدّه أنه في ذلك اليوم لم يأتِ بما يزعج جدّه العجوز.

«أنتَ تؤلمني يا جدّي»، كان يهمس تحت تهدّج أنفاس جدّه التي كانت كسياط اللهب يومذاك.

فتح عينه وقد فرّت منه الذاكرة كسمكة صغيرة تفر من داخل كف. فتح عينه وصار يستغفر الله. فهو قد تلعثم مجدّداً عند تلاوة الذكر الحكيم. «لماذا أتلعثم يا ربي؟ فأنا أقرؤك منذ أكثر من نصف قرن»!!

25

لم يكن قد خلع بنطال «السحاب» وحذاءه حين جعل يجوب أرض الغسل بالذهاب والإياب. كان يستغفر الله جهاراً حين اقترب بغتة من أحد الطسوت وغمس يديه في الماء الساخن إلى حد الغليان.

﴿ وَمَن يَكُنِ ٱلشَّيْطَانُ لَهُۥ قَرِينًا فَسَآءَ قَرِينًا ﴾... ﴿ وَمَن يَكُنِ ٱلشَّيْطَانُ لَهُۥ قَرِينًا فَسَآءَ قَرِينًا ﴾... ﴿ وَمَن يَكُنِ ٱلشَّيْطَانُ ﴾... كان إبراهيم يرددها صياحاً وقد فاضت عينه الواحدة بالدمع واللون الأحمر.

صارت عين إبراهيم تزوغ وتنتفض الرموش من حولها عندما نزع يديه من داخل الماء.

﴿ وَمَن يَكُنِ ٱلشَّيْطَانُ لَهُۥ قَرِينًا فَسَآءَ قَرِينًا ﴾... كانت يدا إبراهيم

ترتجفان جراء ما ألمّ بهما من غلي الماء. نظر إلى الجثة اليافعة من تحت حاجبه الرقيق ثم تناول بطانية سوداء وغطّى بها صدر «السحاب» ورأسه ووجهه وعينيه وكل الرخام.

كانت السماء لا تزال متلألئة بالنجوم إلا من بعضها الشديدة البعد التي كانت تتوارى خلف أول انشقاقات الفجر. كان إبراهيم فوق سطح بيته وحيداً بينما الجثة فوق الرخام. كان منتصباً عند إحدى زوايا السطح على انحناء بسيط وكان جامداً كأنه امتداد لواحد من أعمدة البيت.

«يقال إن الموتي يحلمون بالسماء» لم يرد جده عليه، فهو كان منهمكاً بجثة رجل ازدرده الدهر ولم يبصقه إلا كتلة عظام. لا يذكر إبراهيم اسم رجل العظام ذاك ولا يذكر مآل جثته فيما بعد. كان كأنه قد خرج من القبر تواً ويستعجل العودة إلى هناك. في ذاكرة إبراهيم أن جدّه بذل الجهد كي يدخل لسان رجل العظام ذاك إلى داخل فمه المفكك، ولما فشل قام بقطع هذا اللسان ورميه من النافذة الصغيرة حيث التهمه كلب أسود يعود إلى أحد الرعيان. كان لسان الرجل الضعيف بغاية التورم، وكان ذا لون أحمر كأنه دم متخثر يميل إلى بعض السواد.

كان أحمر إلى حد الفجور على ما يذكر إبراهيم الذي كان صقيع السطح قد أخذ يلم بمجامعه.

كان الكلب يلتهم اللسان ويعرعر...

طار المشهد من أمام ذاكرة إبراهيم ولم يبق أمام عينه إلا مشهد «السحاب» الجميل مقارنة برجل العظام البشع.

26

أزاح البطانية السوداء عن جسد « السحاب» ثم قام بخلع أشلاء حذائه وما يلبس من بقية بنطال. كانت خيوط الشمس تنعكس بخجل فوق طسوت المياه، والنار في الموقد كانت متوهجة كأنها قد أوقدت لتدفئة رجلين وليس رجلاً واحداً.

نعم، همس إبراهيم أن في جسد «السحاب» برداً ولا بدّ من تدفئته بوهج يشبه الشمس.

«إنّ لله من عباده المؤمنين، الذين قد استعدّوا للموت»، قال له جدّه صاحب الأحرف والكلمات.

نظر إبراهيم إلى جثة « السحاب» وأسف أنّ ليس «بالسحاب» الاستعداد الكافي لملاقاة صاحب الملأ الأعلى. .. فالسحاب لم يكن مختوناً.

احتار العمل وصار يرى إلى القلفة في جسد «السحاب» كأنها

عين شريرة ترمقه بحقد. صار يستعيد في ذهنه صورة « السحاب» وهو يجوب جوار بيته منتظراً الموت راضياً مرضياً. إن «السحاب» عدو الشيطان، قال إبراهيم الذي صار يردد مع جدّه إنّ المستعد للموت هو العدو اللدود للشيطان. صار ينظر إلى وجه «السحاب» الطاهر ثم إلى القلفة اللعينة التي كانت تحدجه بخبث... «إنّ الشيطان كان للإنسان عدوّاً مبيناً».

لن يبكي «السحاب» أحد ولن يشارك في جنازته إلا بقية القرية من البله والمجاذيب.

فتح إبراهيم باب بيته لحظة رفع الشمطاء يدها لقرع هذا الباب. استعاذت بالله من الشيطان الرجيم وسألته إذا ما كان قد انتهى من غسل «السحاب».

رجلان فقط من القرية حضرا، فقاما بنقل الجثة المكفنة أروع تكفين إلى العربة الخشبية التي صارت تطقطق فوق الحصى التي قد غسلها الشتاء.

غادر الجميع إلا إبراهيم الذي كان يرتشف الشاي أمام النافذة الصغيرة، فتتناهى إلى مسامعه أصوات المجاذيب خلف جثة «السحاب». كان يرتشف شايه ببطء ويراقب عبر نافذة بيته كلباً ضخماً أسود اللون يلتهم قطعة لحم صغيرة تشبه عين الشيطان.

27

«هو الله أدرى بالمستور وبما وراء الحجب من كل عاقل عليم.يعلم خفايا النفوس وما قيل من حكي وما يقال وما لم يقل بعد.سبحانه ما أعظم شأنه وقد أرسى الأرض بالجبال بعد أن كانت تميد.لا يخفى عنه من أمر عباده شيء فهو من خطّ حظوظهم وحاك خيطان حيواتهم من قبل أن يكونوا بأزمان. وسع علمه لا تحده سماوات وأرض. هو الذي أحصى على العباد أنفاسهم، وأيامهم، ومجرى الأحداث في دهرهم الشحيح».

كانت أصوات الذئاب الآتية من قلب الوادي تخالط صوت مناجاة إبراهيم وهمسه المحموم.كان يصلي وقد أغلق عينه الواحدة بإحكام، وكان يهزهز جسده الرخو فوق كرسيه إلى الوراء وإلى الأمام.

كان الرخام خالياً من أكثر من شهر ولم يكن يدري من أمر القرية شيئاً. أكثر من شهر مرّ ولم ير إبراهيم كائناً ولم يسمع صوت كائن. لم يسمع طوال شهر إلا صوت جرس معلق برقبة تيس أحد الرعاة يأتيه من خلف الهضاب. هو موسم الجليد والبرد وموسم زخات المطر والشياطين التي تهجع في قلب الشجر والصخر وشهب النار.

كان ينظر إلى الشهب في موقد ناره مستغفراً الله مع كل لسان تطلقه النار المحمومة.«لا ترى في الشهب خيراً يا إبراهيم- قال جده-ربما بالشهب شيطان»، فتح عينه على وسعها وقد رنّ صوت جدّه في أذنه يأتيه من خلف الغياب.

أخبره جدّه يوماً فقال: «قام رسول الله (صلعم) ليصلي، فسمعناه يقول أعوذ بالله منك. ثم قال: ألعنك بلعنة الله ثلاثاً، ثم بسط يده كأنه يتناول شيئاً. فلما فرغ من الصلاة قلنا: يا رسول الله سمعناك تقول في الصلاة شيئاً لم نسمعك تقوله من قبل، ورأيناك تبسط يدك. فقال: إنّ عدو الله إبليس جاء بشهاب من نار ليجعله في وجهي».

قام إبراهيم من فوق الكرسي وأطبق على شهب ناره. فتّت بسرعة حطب الموقد إلى جمر ثم جمر فتات جمر إلى حد

الرماد. كان يضرب الحطب المشتعل بقضيب من حديد مستعيناً بصاحب الجلال والإكرام.

كان عواء الذئاب يخترق جدران إبراهيم بينما العاصفة في الخارج تهسهس كأنها تهيّئ مكيدة ما. التف باللحاف فوق الرخام بينما جدّه أمام عينه يتواطأ مع العاصفة بخبث.

كانت الجثة الضخمة بين يدي جدّه كأنها عجينة بحجم رجل، يقلبها مستعيناً في ذلك بكتفه وليس بزنديه فقط. كان إبراهيم في الحادية عشرة من عمره يقف عند الباب شاخصاً وقد ارتسمت على وجهه علامات الرعب. لم تكن جثة عادية بل كانت أقرب إلى كتلة ضخمة من اللحم المتعفن يقلبها جدّه بين يديه بنفس متهدج وبعض لعاب.

«أعطني يا إبراهيم مكعباً آخر من الصابون». قال له جده الهرم يومذاك...«ناولني يا إبراهيم..».

لكنه الآن لا يذكر إلا جدّه يترك تلك الجثة الضخمة ويقترب منه ثم يرميه خارج الباب مع قدميه المتيبستين.

لا يذكر إبراهيم إذا ما شاهد في ذلك اليوم الشياطين في الشجر والصخر أو في عفر التراب. لا يذكر من تلك الواقعة إلا أصوات الذئاب ومكيدة العاصفة ثم أياماً كثيرة قضاها نائماً فوق الرخام غير دار بأي شيء.

28

خيط من اللعاب كان يسيل متسللاً بين شفتي إبراهيم وإصبعه التي في فمه حين استفاق على ما يشبه صوت ضرب الحصى على باب بيته. أخرج إصبعه من فمه، ارتشف اللعاب عبر شفتيه المطبقتين ومسح ما تبقّى من هذا اللعاب بالوسادة التي تحت رأسه.

قام وفتح الباب.

«ماذا تريدين ؟!» سأل امرأة في العقد الخامس من عمرها كانت منتصبة أمام باب البيت بقدميها الحافيتين.

لم تقل ماذا تريد. تراجعت خطوات عن مدخل البيت ثم كلمته، قالت إنها من القرية المجاورة لقريته. كانت تحمل في يدها صرّة سوداء وفي اليد الأخرى وعاء عسل.

«جلبتُ لك هذا العسل»، قالت المرأة وهي تضع صرتها وعسلها على الأرض.

«أريد منكَ أن تسكب فوق رأسي ماء الموتى وتقرأ عليّ سورة الجنّ». كانت ترتجف برداً، وكان لون سحنتها أقرب إلى الأزرق.

أخبرت إبراهيم أنها جاءته لتفي بنذر كانت قطعته على نفسها منذ سنوات خلت.. «جاءني ملاك في الليّل وقال: مرّي ببيت هو ممر للأموات».

شرع إبراهيم في سكب الماء فوق رأس المرأة الذي قد احتلّه الشيب بينما هي تنوح بين يديه وتقصّ عليه خبر التهام جن أسود لرأس وحيدها كل يوم.

«نعم، قالت المرأة، كل عشية يأتي جن لونه أسود فيلتهم رأس ولدي الوحيد ثم يعيده عند الفجر». كان إبراهيم ينصت إلى كلام المرأة وهي تشرح تقاسيم الجن وصراعها معه منذ سنين. كان كلامها الأقرب إلى الهمس والأنين يخالط صوت إبراهيم وهو يتلو سورة الجن فوق رأسها المبلل بالماء. أخبرته أنّ الناس قالوا: لا جن يأكل رأس ابنك الوحيد. لكن الناس، قالت لإبراهيم، كانوا يرشدون هذا الجن إلى بيتي إذا ما ضلّ السبيل. كان الناس، قالت المرأة، يتهافتون إلى سطح بيتي ليشاهدوا عراكي مع الجن. لكن- أردفت بذعر- عندما يغادرون ينفون أن ثمة جناً أسود يلتهم رأس ابني العشية ثم يعيده عند الفجر.

لثمت جبين إبراهيم وكفّيه وسألته أن يمسح وجهها ورأسها

بهاتين الكفين. قالت له إنها منذ عشرة أيام لم تشاهد الجن على السطح أو داخل البيت أو حتى في الجوار.

«صرتُ أستفيق في الليل فأرى رأس ولدي مشدوداً كالصخر بين منكبيه».

ودّعت المرأة إبراهيم « المبارك» وتوارتْ داخل دغل الغابة وهي تدعو العلي القدير أن يمدّ بعمر ابنها الذي..... وكما تناهت الأخبار من تلك القرية، لم يكن له وجود قط.

29

﴿وَأَنَّا لَا نَدْرِيٓ أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِي ٱلْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا ﴿١٠﴾﴾ (سورة الجن 10).

«إذا استقر بك المقام في أرض خلاء وهجعة استعذ بالله من الشيطان يا إبراهيم. إنّ موطن الشيطان الخلاء»، كان الصمت سيد الوقت والمكان ولم يكن ثمة حسّ أو حسيس. حتى أوراق الشجر والعشب كانت هامدة كأنها نيام.

قام إبراهيم ينظر عبر نافذته علّه يستأنس بطير أو بجرو ضال أو حتّى بجندبٍ أعرج أو نسمة ريح. لم تمدّه النافذة بأي أنس إنما خلاء ثم خلاء.

«قام فينا رسول الله فقال من أراد منكم بحبوحة الجنة فليلزم الجماعة، فإنّ الشيطان مع الواحد، وهو مع الاثنين أبعد». همس

جدّه في أذنه إنّ الشيطان مع الواحد وهو مع الاثنين أبعد. صار جدّه يجول في خاطره واقفاً، قاعداً، منبسطاً، يقرأ القرآن ويغسل الأمـوات. صار إبراهيم يغالب ضعفه في هذا الخلاء المنزلق وينصت إلى جده يقول: «إنّ تحفة المؤمن الموت. إنّ الموت- قال جدّه-هو حاجة الزمن في أجسادنا الهشة».

كان ذلك منذ حوالى ستين صيفاً حين استقبل جدّه العجوز جثّة واحد من الغرباء كان ماراً في القرية مصادفةً.

يذكر إبراهيم أن هذا الرجل كان تاجر قماش أو مواش أو ربما جرار ماء. كان واحداً أعتق من الأيام والليالي، واحداً طاعناً في السن أقدم من لحاء الصنوبر. لا يذكر إبراهيم بالتحديد كيف وصلت جثة هذا الطاعن إلى فرش الرخام ولا يذكر كيف انتهت بين براثن جدّه آنذاك. لا يذكر من ذاك العجوز إلّا صورة جدّه يستغفر الله ويستعين به على هدأة ألمّت في ذلك الوقت بالشجر والعشب وهدأة الطير.

«إنّ بيت الشيطان الخلاء» كان يقول جده فوق صاحب الستين، مستغفراً الله من ذلك الهجوع المميت. «إنّ الهجوع مركب الجن وهو دابة الشيطان التي تسير فوق الأرض ولا يستشعرها حتى الهواء،يا إبراهيم».

صار إبراهيم - وقد أشاح بوجهه عن النافذة الصغيرة - يحارب شيطان الخلاء باستحضار جدّه إلى حدّ العيان. حتى نار موقده المتقدة التي قد جذبته إليها كانت كأنما تبتلع صوتها داخل الحطب المشتعل.

«أجل يا إبراهيم، إنّ الهجوع هو قمز شيطان رشيق، كأنما دخان سريع يأتيك من بين الشقوق، من مدخنة السقف أو من تحت هذا الباب»، قال جده يومذاك مشيراً بإصبعه المعكوفة إلى باب البيت.

30

نظر إبراهيم من مكانه قرب الموقد إلى باب بيته وصار قلبه كأنه نار. استعاذ بالله من الشيطان الرجيم وصار يتلو: «ألا إنّ حزب الشيطان هم الخاسرون»... «ألا إنّ حزب الشيطان هم الخاسرون»... «ألا إنّ حزب الشيطان هم الخاسرون».

كان يهدر بصوته ويغطي وجهه بكلتا كفيه.. ثمة أشباح وأخيلة سريعة كانت تتسلل من تحت باب البيت وتصدر خليطاً من الوشوشة والنحنحة والهمهمة والهمس.

توقف همس الشياطين فجأة وثمة الآن قرع خفيف ثم صوت العجوز الشمطاء تناديه. نزع كفيه عن وجهه الأبيض، بلع الآية إلى قعر جوفه وتقدم بخطى صامتة وفتح الباب بقوة وعنف.

«ماذا هناك؟»، سأل إبراهيم الجماعة المتحلقة أمام عتبة

البيت. «إنّه يونس، لقد مات..» قالت العجوز التي واربت إبراهيم الكتف وولجت إلى غرفة الغسل حيث وضعت فوق الرخام طفلاً صغيراً.. خمسة، ستة، سبعة أو ربما ثمانية أيام.

فإذن هي جثة طفل لا يتعدى الشهر الواحد من العمر ويدعى يونس. كانت أمه الشابة تنوح خلف الشمطاء بينما والده في الجهة الأخرى من العتبة ممسك بيده صبياً وباليد الأخرى يمسد رأس فتاة في الرابعة من العمر.

غادر الجميع إلا يونس. تحسّس إبراهيم جثّة الطفل الذي بدا كأنه على وشك الاستيقاظ.

كان بارداً كأنه ثلج، لكنه كان أنيساً إلى حد الملاك.حضن إبراهيم الجثة الصغيرة وتقدم بها بخطى مترددة إلى موقد النار. كانت ألسنة اللهب قد استردت صوتها المسلوب، وطرطقة الحطب عادت إليها حيويتها الحمراء. كان ينظر إلى يونس الذي بين كفيه وارباً رأسه بعينه الواحدة إلى أقصى اليسار.

كانت النار قد استعرت بشدة على وقع مشهد إبراهيم وهو حاضن الشهر الواحد إلى صدره مرجرجاً جسده إلى الأمام وإلى الوراء...وكان يغني.

31

إنّ الذاكرة كقطعة القماش، تارة تميد الذكريات فوقها كأنها صخر يتدحرج، وتارة كأنّ الذكريات ماء رقراق يتخلل رتق القماش برفق.

كان إبراهيم يغني ليونس ليس بصوت جدّه، إنما بصوت امرأة لا يذكر منها إلا خيطاً منسلاً من منديل فوق الرأس.

كان يغني أغنية الغراب الذي صار أبيض اللون حين قبّل ثغر إبراهيم....ثغر يونس.

لا يذكر إبراهيم من هذه الأغنية إلا الخيط الأبيض يتابعه بعينيه الاثنتين. كان يغني أغنية الغراب الأبيض الذي يصير أسود حينما يحزن الأطفال. شعر بحرارة جسد يونس تتسلل إلى قلبه السعيد.

غنّى ليونس، ثمّ غنّى حتى امتلأت كل الدنيا بأسراب الغربان

البيضاء. كان يغني ليونس الصغير ويمضغ إحدى أنامله الطويلة ويراقب خيطاً واحداً منسلاً يميل معه إلى الأمام وإلى الوراء.

نام إبراهيم ويونس في حضنه. اتّكأ على يونس ونام وحين استفاق شعر برهبة أن يغادره الصغير الآن.

إنها الشمطاء تقرع الباب وتفحّ في الخارج كي يناولها الطفل النائم بين يديه. أخذت العجوز الجثة الصغيرة وتجاهلت سؤالاً خالجها بغتة: «هل كان يونس مبتسماً قبل أن يغسله إبراهيم»؟، كتمت الجواب في جوفها العميق، وشتتت بذعر هذا السؤال. استغفرت الله من هذا الأعور اللعين وعجّلت المضي باتجاه القرية وهي تسترق النظرة بعد النظرة إلى بيت إبراهيم.

32

لا شيء يشي بالذعر ولا شيء يشي بالغثيان..

كان إبراهيم مستوياً فوق الرخام يتأمل الخيط الذي انسل من ذاكرة عتيقة لم يستطع إلى فلشها سبيلاً. صار يحاول رؤية الخيط بعينيه الاثنتين، لكنه كان دائم الفشل. فهو لا يذكر إلا وفي وجهه عين واحدة فقط، وهي عين لا تجيد سوى جدّه وأشياء من هذا القبيل.

كان مسترسلاً يردد أغنية الخيط المجهول وفي باله أن يونس هو الأغنية وهو الخيط. لم يرق لإبراهيم أن يونس باغته بالمجيء وباغته هكذا بالرحيل. ارتسمت في مخيلته صورة الشمطاء العجوز وقد خطفت يونس وولت كمن يلوذ بالفرار. كان الوقت عند المغيب حين كان إبراهيم منبسطاً فوق رخامه يتلو كتاب ذاكرته السميك أمام زجاج حاضره الشفاف. لم يرقه أن العجوز سرقت يونس/ الأغنية.

كانت العتمة قد أخذت بالاسترسال في سوادها الكحلي

وبَيض ذاكرة إبراهيم يفقس كل شيء إلا صوص الأغنية والخيط.

«ما الخيط يا ربي»؟! أغلق عينه بنعس وسأل أيضاً: «ما الأغنية وما أبيض الغراب»؟! منح كل كلمات الأغنية حظوظها لكن ذاكرته أردت هذه الذكرى أرضاً، بل تحسب أنها دفنتها في قبو مستحيل.

عادت صورة الشمطاء تجترّ ذاكرة إبراهيم القريبة وهي تختلس النظر إلى بيته، وفي حضنها يونس والأغنية والمنديل والخيط.

«لماذا سرقت هذه الشمطاء خيطي»؟!، قال وهو يدور من جنب إلى جنب.

«ما لها وغرابي الأبيض، تعبث بريشه وتجعله يفرّ من بين يدي؟!».

كفّ عن استوائه وصار يجول في مساحة الرخام بكل ما أوتي من جهات جسده الكثيرة. بردَ الرخام تحت إبراهيم وصار يتسلل إلى لحمه وعظامه القريبة وصولاً إلى قلبه الجليد. انتبه إلى موقده الذي قد شحّت ناره على وقع استرساله المضني في الخيط والغراب والعجوز الشمطاء.

اقشعر بدنه من شدّة البرد، فقام وأشعل الحطب القليل.. «الدبس أيضاً قليل في بيتي، كذلك العسل والخبز والبيض والتين..».

لم يكن في الخارج مطر إنما زمهرير مرصع بالنجوم...

33

جلس أمام موقده يتأمل بلامبالاة زاوية أكله التي قد قاربت الفراغ. لم يتعوّد إبراهيم في دهره الجوع... أصلاً هو قليل الطعام، ولا بد كما علمته الأيام، من موت بعد موت.

أجل، إنّ طعام إبراهيم، كما كان حال جدّه هو موت الرجال، موت الذكور.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ ﴿١٠٢﴾﴾آل عمران 102. كان يقرأ في كتاب جدّه أمام موقده السعيد بلهب وشهب وعجقة نار. مع كل انحناءة واستقامة كان يردد كلمات جدّه تارة بخفض الصوت وتارة أخرى بجهاره. بان القمر في السماء قرصاً من الفضة، لا تشوبه شائبة غيمة أو كمدة أو حتى خيط دخان. كان الجو بغاية الهدوء إلا من الزمهرير وصوت

إبراهيم يقرأ.... والآن، ضوء خافت يقترب من بيته بذعر، ووقع حوافر على الحصى.

أغلق القرآن الكريم وأنصت إلى جدّه يقول: «قال رسول الله: العطاس من الله والتثاؤب من الشيطان. فإذا تثاءب أحدكم فليضع يده على فمه وإذا قال: آه، آه فإنّ الشيطان يضحك من جوفه، وإنّ الله يحب العطاس ويكره التثاؤب».

تزامنت شخرة بغل أمام البيت مع طرق على الباب وصوت رجل يتثاءب. استعاذ بالله ثم قام وفتح الباب.

بالإضافة إلى العجوز الشمطاء التي كانت تحمل في يدها فانوساً كاد ينتهي الضوء فيه، كان أمام بيت إبراهيم بضعة رجال وبغل يحمل جثة رجل، ورجل يشد لجام البغل... أما هذا الرجل الأخير فقد كان يتثاءب أمام بغله كل الوقت.

لم يرحّب إبراهيم بالناس وزاغ بصره بين الرجل الذي كان يتثاءب وذلك المرمي فوق البغل. كان ملفوفاً على عجل ببطانية مهلهلة وبعض رأسه كان ظاهراً لعين إبراهيم.

«سلام الله على أهل الله»: بهذا أنهى رجل التثاؤب تثاؤبه وهو ينظر إلى إبراهيم. لم يبادله إبراهيم السلام وأزاح بصره نحو الشمطاء. أومأت هذه الأخيرة برأسها إلى أحد الرجال فأدخل بسرعة صرة كبيرة إلى داخل البيت.

رُمي بالجثة فوق الرخام على وقع صوت جده يردد: إنّ الله يكره التثاؤب. إنّ الله يكره التثاؤب. إنّ الله يكره...

هي جثة رجل لا يتجاوز الأربعين من العمر، مات نتيجة سقوطه من فوق أحد المرتفعات الجبلية.

غادرت الجماعة إلا من الصرة والجثة وصوت التثاؤب الذي أناخ بكلكله فوق ذهن إبراهيم وروحه. أشعل النار تحت الطسوت وتناول من فوق أحد الرفوف مكعب صابون مهترئاً.

لم تكن جثة الرجل كثيرة الملابس، ولم يكن وجهه مغطى، إنما دلّت ملامحه على حزن مكتوم مغطى بابتسامة صفراء.

«وجوه الموتى خرائط نفوسهم يا إبراهيم. ووجوه الأحياء حيل نفوسهم». هذا ما علّمه إياه جدّه المتمكن من الأحياء والأموات، وممن هم بين بين.

عاد واستغفر الله وقد تسلل تثاؤب الرجل من جديد إلى أذنيه.

«استغفر الله من الشيطان الرجيم»، قال في حضرة الجثة التي قد تعرّت تماماً.

تقهقر خطوات إلى الوراء وقد واجهته هذه الجثة بما توقعه من شيطان رجيم.

34

«أعوذ بالله في السّراء والضّراء، في الشدّة والرخاء وفي كل ذهاب وإياب».

لم يكن الرجل المرمي فوق الرخام واضح الأعضاء بالنسبة إلى إبراهيم. أخذ ينظر إلى وسط الرجل وقد أكلت الحيرة قلبه وعينه الواحدة وشفته التي قد عضّها من جهة الشمال.

لم يكن للرجل عضو ولم يكن له فرج، لكن كان لديه عضو وأيضاً كان لديه فرج!! «لا إله إلا الله» همس إبراهيم وقد حمل البطانية برؤوس أصابعه وقذف بها الرجل المرمي على الرخام. نظر إلى الطسوت التي صارت تبعث البخار وإلى مكعب الصابون مستغرقاً في أفكار كثيرة تتناوشه باضطراب.

﴿اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾. كلا قرر إبراهيم، لن أغسل هذا الجسد الكافر بيدي... إنّ من أولده الشيطان!

أشاح بوجهه عن كل الجثة التي اكتفى بأن شدّ ذقنها إلى باقي الفم. كان مغمضاً عينه الواحدة ويتلو مع جدّه من كتاب الله ممنياً النفس تجنّب الشيطان ﴿وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾...﴿وَلَا تَمُوتُنَّ فَقَدْ ....وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾.

35

«وأنت يا جدي، يا صاحب القداسة والمسلك القويم. أحطني بقداستك وبحبل سرك الإلهي وبنور أينعه الله في قلبك البصير. أنا يا جدي بحاجة إلى لطفك وإلى بهاء ظلك وإلى سعة علمك بأحوال السرائر والأجساد. تلطّف يا جدّي عليّ وهبني شيئاً مما جاد به الله عليك من سر حروفه ولطائف مفرداته وكمون معاني جمله وخطاباته. .. أنا يا جدي بحاجة إليك.. أنا يا جدي بحاجة إليك..».

كان إبراهيم يرمق الجثة التي فوق التراب أمام باب بيته بحذر. لم يكن داخل البيت، إنما على العتبة ينظر إلى التلال البعيدة مترصداً وصول الشمطاء وصاحب البغل الذي يتثاءب كالشيطان.

لم تكن به حاجة الدخول إلى الداخل. فهو كان على تململ

شديد كأنّ وكر نمل قد اجتاحه من قمة رأسه إلى أخمص قدميه. كان على توق كثير إلى شيل الرجل المقذوف أمامه على التراب، والذي قد عبث به الشيطان « مغتبطاً»، كما كان يفكر إبراهيم.

«سبحانك يا ربي الأعلى، كيف تهدي الأخيار من عبادك النور وتجنبهم لمس ممن قد لطى بهم إبليس الخسيس»، قال وهو يسترق النظر إلى ذلك الغريب الممدد في الخارج.

لم يكن رجل البغل مع زمرة المشيعين، إنما الشمطاء وبضعة رجال وتلك العربة التي تطقطق.

نظرت الشمطاء إلى الجثة التي صارت فوق العربة ثم حدجت إبراهيم بنظرة كأنها قد رفعت الغطاء عن سر من الأسرار. «أنت يا إبراهيم لم تغسل هذه الجثة ولم ترشّها بنقطة ماء».

بادل الشمطاء نظرتها ودلف إلى بيته مستغفراً على وقع استغفارها وتمتماتها وما يعجق به لسانها من رب واحد وكثرة الشياطين.

36

قال جدّه: «إن كلمات الله هي كنايات عن وجوده، وأشكال الجثث هي كنايات عن مصيرها عند رب العالمين.

فإذا كانت كلماته، جل وعلا، تدل على حضوره المقدس، فهيئة الجثة تدل على مرتبتها لدى صاحب البعث والميعاد.. حضور الموتى عند الله يحدّد عبر شكلهم الأخير فوق سريرنا يا إبراهيم، تماماً كما أن حضور الله فوق سرير الكون الفسيح يحدّد عبر حروفه البهية يا بني يا إبراهيم».

كان ذلك منذ عهد قديم حين كفّن جدّه رجلاً دون غسل أو مسح أو تسريح شعر أو حرق بخور. كان إبراهيم في عمر المراهقة حين لفّ جدّه الجثة على عجل ووضعها على صخرة رمادية تبعد عن البيت أمتاراً. يذكر إبراهيم أن جدّه وضع تلك الجثة هناك

بانتظار أن تنهشها الضواري أو تستعاد من قبل الذين قد جلبوها إليه. لا يذكر من ذلك اليوم إلا جواب جدّه حين سأله عن السبب: «إنّ الشيطان قد لطى بهذا الجسد يا إبراهيم.. اللهم - قال جدّه يومذاك - أعوذ بك من. ..» لا يذكر بقية دعاء جدّه في ذلك اليوم «المشؤوم» ولا يذكر مصير الجثة لكنه يذكر أن جدّه صام شهراً ولم ينطق إلّا بآيات من الذكر الحكيم طوال ثلاثين يوماً.

تبلبل ذهن إبراهيم كثيراً بهذه الجثة الموبوءة بالشيطان وفكّر: «لعل الله يريد عبر هذه الأجساد إبلاغ الأصحاء من عباده بأمرما ؟! لعله سبحانه وتعالى، يريد من وراء هذا الجسد المضطرب شحذ بصائرنا بكلية التوجه إلى جسده الكريم.. سبحانه، هو من وراء القصد».

تزاحمت الخواطر في رأس إبراهيم وتشعّبت وصار كل يوم يطيل النظر إلى ما بين فخذيه. لم يسبق له البتة أن غاص في أعماق أعضائه كل هذا الغوص. اكتشف فجأة أنه لم ير عضوه يوماً بأم عينه الواحدة.

صار يتلمس عضوه المجهول وخصيتيه كي يتأكد من حضورهما الأبدي في هذا الكون. صارت عينه «الواسعة» تلتهم عضوه الموجود فجأة، عند الاستيقاظ وقبل النوم. أخذت صورة

تلك الجثة الموبوءة بالشيطان تنزاح عن روح إبراهيم عبر عينه وأصابعه وعضوه المنتشل من النسيان، وأيضاً عبر حضور خصيتيه.

«اللهم- صلّ إبراهيم-زيّن وجودي بوجودك، واربطني بعز جبروتك ولا تجعل للشيطان إلى جسدي سبيلاً، إنك أنت السميع المجيب».

صار إبراهيم كل يوم وقبل أن ينام فوق سرير الرخام يناجي الله كي لا يخذله أمام كمائن الشيطان.. «سبحانك ما أعظم شأنك، إنك أنت الحي القدير. .. سبحانك ما أعظم شأنك خلقتني في أحسن تقويم»، كان يردد يوماً بيوم، ساعة بساعة، لحظة بلحظة، ولا يستكين.

37

تناثرت صورة المخنّث خلف اطمئنان إبراهيم وإيمانه بقدرة الله على خذل الشيطان. صرف اهتمامه عن كل ما يعكر هدأة وجوده في العالم وقد منّ الله عليه بصفوة جسد ليس موبوءاً بلمسة جن أو شيطان أو روح لعين.

رمى بصرّة صاحب الجسد الموبوء بما فيها من أكل وحطب في النار. فهو لم يأخذ من هذه الصرّة حتى رغيفاً أو عود حطب.

«اللهم جنبني كمائن الشيطان»، كان لسان حاله يقول وهو يقوم برمي أشياء الصرّة في موقد ناره. صار إبراهيم يزاحم النار بأشياء هذه الصرّة الموبوءة فيرسل محتوياتها، بأنفاسه المتقطعة، في لهب النار.

إنها اللحظات الأولى للفجر.

.. أما جدّه فما زال يداخل ذاكرته بذهاب وإياب لا يكل. تارة يطالعه من وراء جثة متخشبة وتارة أخرى من فوق الكتاب الكريم.

إنه الربيع بزهره وزرازيره وطيوره ودفء شمسه وأخضره الذي لا يخلص أمام بيت إبراهيم.

«موتى الربيع يا إبراهيم أقرب إلى طبائع النساء»، بهذا أخبره جدّه يوماً أثناء غسله شاباً كان يدمع فوق سرير الرخام. نعم، فهو يتذكر أن جثة هذا الشاب كانت تبكي بلا صوت بين يدي جده القويتين. «لا تستغرب يا إبراهيم- قال جده في ذلك اليوم- إنه الربيع، وموتى الربيع من أكثر الأموات شفافية وأقربهم إلى مزايا النساء». قال جده «إن موتى الربيع قد يبكون أو يبتسمون أو يسألون شم الورد، ولكن دائماً بلا صوت.. لا تخف يا إبراهيم، الأيام ستريك من يكونوا موتى الربيع».

يتذكر كثيراً أن جده كان ينتظر موتى الربيع أكثر من موتى الشتاء. أما أولئك الذين يموتون في الصيف أو الخريف: «فلا تأبه لهم كثيراً يا إبراهيم، فهم أقرب إلى فكرة الإحياء وظنّهم عمن هم الأموات».

موتى الخريف والصيف قال جدّه فوق السطح، لا يجيدون متعة المكوث بين بين. إنهم فقط إما أموات وإما أحياء.

لم يفهم إبراهيم البتة حكي جدّه عن فصول الموتى وأيامهم. لكنه يذكر أن جدّه قال: «لا عليك، ثمّة ربيع أو شتاء قد يريك ماذا أعني بهذا الكلام... يا إبراهيم».

38

هلّ ربيع، ثمّ ربيع ومن بعده ربيع ولم يفهم إبراهيم كنه رواية جدّه الميت عن موتى الربيع...

...إنهم كسائر الأموات، فكّر إبراهيم.

لكنه يدرك بعمقه أنهم ليسوا كسائر الأموات، فهو لا يشك أبداً في حكي جدّه عندما يتعلق هذا الحكي بقصص الأموات.

لطالما فكّر إبراهيم أن جدّه ميت ما حتى عندما كان حياً يرزق في دنيا الأحياء. وهو يتذكر بكل وضوح كيف شهق جدّه ضاحكاً لما سأله ذات ليل: « أأنت حي يا جدي، أم أنك ميت؟» هي من المرات النادرة التي رأى فيها إلى جده يضحك...يضحك.... يضحك بصخب.

«لست أدري يا إبراهيم»، قال جده ليلذاك وأكمل ضحكه حتى الفجر.

كان إبراهيم منحنياً فوق نافذة بيته يتأمل نحلة وحيدة تطن كأنها تفتش عن سربها الضائع. كانت تدور أمام نظره الأبيض الخامل، وكانت كمن قد هدها التعب. لم ير إلى نفسه إلا وهو يلاحق هذه النحلة بعينه التي كان بؤبؤها يتحرك بسرعة وبلا انتظام.

كانت عين إبراهيم الواحدة تتابع هذه النحلة المنهكة التي قد وقعت الآن على حافة النافذة. لم تعد النحلة نحلة، إنها الآن جثة نحلة على حافة نافذة إبراهيم. مط شفته السفلى ثم أخذ يزدرد شفته العليا داخل فمه المورور. حدّق إلى النحلة قليلاً ثم ورب رأسه إلى داخل البيت ينظر إلى سرير الرخام. ندّت عن شفتيه ابتسامة أو ما دون، ثم أخذ يقلّب النحلة ذات اليمين وذات اليسار. لم تبادل الجثة إبراهيم بطنين الصوت أو برف الجناح. هي نحلة ميتة من اليمين ومن اليسار ومن الخلف ومن الأمام، كما قال إبراهيم. رفع رأسه عن النحلة وجال في الأرجاء ممنياً النفس أن يلمح نحلة شمطاء وعربة جر خشبية تطير. لكن الأرجاء لم تبلّغ إبراهيم إلا بفراغ ومن خلفه فراغ. عاد إليها يقلّبها بحنو وقد بادرته بعسل مؤجل في هذا اليوم الربيعي الجميل. نعم، فكّر إبراهيم أنّ بهذه النحلة رسالة عسل أو ربما رسالة ورد. قرّب إبراهيم أنفه من النحلة يشمها، لكن أنفه خانه إلا من رائحة حجر عليه بعض من ماء الشتاء.

«سبحان الله – قال إبراهيم– كأني بهذه النحلة تريد أن.. .».

صار يدير العبارة في ذهنه علّه يلتقط ماذا تريد أن تقول هذه النحلة الميتة الآن. لكن العبارة خانت إبراهيم ولم يقدر أن يعرف ماذا أرادت أن تقول صاحبة العسل المؤجل إلى حين كما ستبيّن أحداث الرواية فيما بعد.

نظر إليها نظرة أخيرة ثم قام بنقفها (بالإصبع الوسطى) إلى ما بعد العتبة لتطير طيرتها الأخيرة ثم ترقد على التراب.

39

بقدم قاسية شديدة الوقع داست العجوز الشمطاء النحلة لتسحل بعدها بإطارات عربة نقل الموتى التي تبدّت أمام نظر إبراهيم فجأة كأنها نزلت من السماء.

لم يشعر إلّا والعربة أمام بيته وتلك الشمطاء تنظر إليه وجهاً لوجه، وثمّة أعمى يهسهس بخوف: «بلا غسل....بلا غسل» ويفتل رأسه حول رقبته مثل كل العميان. «أصمت» قالت له الشمطاء لتلتفت من ثم إلى إبراهيم.

«إنّه الأخرس خذه واغسله..إنّه ملطّخ بالدماء».

نظر إبراهيم إلى الجثة مستنشقاً رائحة الزهر البرّي المنتشرة بشدّة في الأرجاء.. هو الربيع!

إنّه الأخرس، دون العشرين من العمر، لم يعرف من العالم

إلا نقل الحطب إلى منزل والده الضرير والاهتمام بعنزة أو عنزتين وبديك واحد وبضع دجاجات.نادراً ما يخرج من بيت أبيه، وكل أهل القرية يقسمون أنه لم ينظر إلى وجه أحدهم في يوم من الأيام. كان إذا ما شوهد مصادفةً لا يشاهد إلا وهو يركض أو يهرول أو يسير سيراً سريعاً.

إنّه الأخرس أو الهارب كما كان يلقبه الصبيان. فهو كان يفر كالقط إذا ما بوغت في مطرح ما. إنّه أخرس كأمه التي ماتت بعد ولادته بشهرين... ومن هي تلك التي تجرؤ على الزواج بهذا الضرير بعدما خنق زوجته الأولى بحبل الغسيل كما تقول المرويات!!

«بلا غسل...بلا غسل». كان يردد خلف الشمطاء التي لم تعره اهتماماً ما خلا كلمة «أصمت» تتوجه بها إليه بحزم. صمت الأعمى واستكان إلى يد العجوز التي كانت تجرجره كخرقة بالية فوق الوحل.

40

«يا لهذا الجسد الجميل»! قال إبراهيم وهو يحملق في الأخرس فوق الرخام. استغرب كيف أن عيني هذه الجثة مغلقتان بشدة كأن ثمة من قام بتقطيبهما بإبرة وخيط.

حاول عبر إصبعيه شق رمشي إحدى عيني الأخرس، لكنه فشل.

كل جسد الأخرس كان مترهلاً...«لم يأب الأموات النظر إلى وجوه الأحياء»؟! قال إبراهيم وهو يحرك بإصبعه الطويلة اللحم المشدود فوق العينين.

تناهت إليه صورة جدّه وحكيه عن عيون الموتى وما تقوله هذه العيون.

«تباً، قال إبراهيم، أي سر يريد هذا الأخرس المسكين ألّا يطلعني عليه ؟» عاد وحاول شق الرمشين، لكن مجدداً، دون طائل.

41

جاء في أقوال الأسلاف أن الإنسان حين يموت يصير لسانه لسان بيان، فيعرف الصرف والنحو وعلامات الحروف وحركاتها حتى ولو كان أميّاً.

أخبره جدّه أن لحظة الموت تفتّق اللسان عن فصيح القول. فلا يتبلبل لسان الميت لأنه يكون لحظتئذ في حضرة ملائكة الله.

«سبحان الله - قال جدّه- كيف يصير الإنسان بليغ اللسان حين يموت».

كان ينظر إلى العينين المشدودتين وإلى اللسان في بعض تدلّيه ويتذكر حكي جده في إحدى الليالي عن بلاغة لسان الموتى. «برحمة من رب العالمين- قال جده ليلتذاك- تتفوق ألسنة الأموات على ما يعتورها من أخطاء لغوية... فالوقوف في حضرة

الملائكة- قال جده بوقار ملحوظ-يستوجب لساناً بليغ القول ذا فصاحة وبيان».

عاد إبراهيم وحاول شق رمشي هذا الميت الممدد أمامه بارتباك وخفر ولكن... لا طائل.

صار يحف أصابعه فوق بعض لسان الأخرس بشكل دائري كأني به يحاول سحب بيان هذا اللسان إلى ذهنه هو، علّه يدرك ماذا يقول هذا الأخرس المسكين.

كان اللسان جافاً كأنه قطعة قماش مرمية تحت شمس لا تغيب. صار يمعس بإصبعيه ما بان من هذا اللسان عبر الشفتين غير المطبقتين. كان يشد على لسان الأخرس المسكين متخيّلاً أن الكلمات ستنزّ أو تسيل أو ترشح أو شيئاً من هذا القبيل. لكن فصاحة ألسنة الموتى لا تستجيب إلا للملائكة «يا إبراهيم» أخبره جدّه في ذلك اليوم، وأردف: «نصيب الأحياء من الفصاحة حالة عابرة يا ولدي، فاللسان الفصيح هو فقط لسان أولئك الذين يموتون».

كانت الجثة لا تزال مزرّرة، وثمة بقعة من الدماء تميل إلى اللون الأسود وتنتشر على بعض مساحة هذه الجثة. يجوز القول إنها بقعة تشبه ليلاً لا ينتهي، وتشبه أيضاً غاراً مقفلاً بإحكام.

كان الدم فوق الملابس متخثراً، كأنه دم الملابس وليس دم الأخرس الميت.

أطفأ إبراهيم النار تحت طسوته التي أخذت تنفث دخانها، واستبدل مكعباً من الصابون بآخر أكبر وهو يحدق إلى بقعة الدماء.

لم يفهم أسباب دماء الأخرس المسكين ولم يفكر في الأمر كثيراً.

فوالده الأعمى هو واحد من مجاذيب القرية، فربما هو من.. . لم يفكر في الأمر كثيراً وانبرى إلى خلع ملابس الأخرس عن جسده الـ.. الـ...الـ...الخجول.

42

«إذا أراد الله بعبده خيراً استودعه سر نحر الشيطان، يا إبراهيم».

كانت ملابس الأخرس رثة، وفي بعضها لم تتجاوز أن تكون أكثر من خيوط مهلهلة ملتفة بعضها على بعض.

كان إبراهيم يفك أزرار هذا الميت المسجى بين يديه وفي ذهنه كلمات جده عن الصالحين من العباد ممن أهّلهم رب العباد لمقارعة خطط الشياطين. مع كل زر يفكه أو خيط يقطعه كان يستجيب لصوت جدّه الذي جعل يخترق حاضره من فوق ومن تحت ومن هنا ومن هناك.

«اللهم نجّنا من مكائد الشيطان بنور منك وشدّة بأس، سبحانك إنك العلي القدير». كانت يداه ترتجفان فوق الجسد

الأخرس النحيل، ولم يكن في الأرجاء سوى صوت النار وصوت جده يخترق كفيه. كان اللعاب داخل حنجرة إبراهيم يطقطق، وكان متهدج الأنفاس.

«إذا أحب الله عبداً ابتلاه بواحدة من عثرات الشيطان وعوراته»، قال الجد مع آخر خيط قطع إبراهيم من قميص ميته. اقشعر جسده وارتجف، وثمة برودة اخترقت ظهره وصولاً إلى جبهته وأصابعه التي صارت كالجليد. نأى بنفسه عن الجثة ودنا من الموقد الذي كان مفعماً بالحطب.

كانت الجثة قد تعرّت في جزئها «العلوي».

سكب لنفسه كوباً من الشاي وجعل ينظر إلى هذا الجسد النائم إلى حدّ الهلاك. كان ينظر بعينه الواحدة إلى صدر الأخرس متأملاً حلمتيه شبه الناتئتين.

كان يرتشف الشاي بتؤدة وازدحام وبوقوف وجلوس وبكل شيء. صار يزاحم نظره بين الحلمتين شبه الناتئتين، ورأس الأخرس الأقرع إلا من بعض الشعر المشتّت بغير انتظام.

إنّ جدّه كأنه هنا يقرأ لإبراهيم أن بالشيطان عزماً جهنمياً لا يستكين إلا أمام من قد أمده الله ببقية رمح من جنة الخلد.

نظر إلى الخلف بغتة وقد تدغدغ أسفل رقبته بنفس حام ثم

صوت جدّه يقول بهمس: «لا تيأس من رحمة ربك إذا ما باغتك الشر، وكن سيف الله ورمحه ضد الشيطان يا إبراهيم».

ملك عليه جده السمع والبصر ولم يتبدّد هذا الجد إلا على وقع صوت تحطم فنجان الشاي فوق أرضية البيت.

كانت النار قد توهجت في الموقد وإبراهيم يخلع البنطال عن جسد الأخرس بسرعة... بسرعة... بسرعة... وباضطراب.. باضطراب...باضطراب...

اغرورقت عينه الواحدة بالدمع، واغرورق جسده بيده تعصر رقبة الفتاة.

43

نعم، لم يكن الأخرس سوى فتاة ذات رأس أقرع وبقية صدر وجسد ناعم وعورة تحدق إلى وجه إبراهيم وتطلق سهام الشيطان.

نزع يده عن رقبة الفتاة وقد عاوده جدّه يقول: «إذا أحب الله عبداً ابتلاه بواحدة من عورات الشيطان».

وضع يده فوق جبينه ثم تقهقر إلى الوراء. صار يبكي لا يدري لماذا، وصار يرضع إصبعه كما يفعل قبل النوم. نام فوق الرخام قرب الفتاة الميتة الخرساء. لم يجتر إصبعه كثيراً، هي لحظات وغفا، وكان آخر ما شاهد قبل نومه، اتقاد النار في الموقد، وكان آخر ما سمع صوت لهب هذه النار...

«اللهم نجّنا من نار جهنّم»، همس إبراهيم ونا م.

44

ميت، اثنان، ثلاثة أموات كانوا يغسلون جثة إبراهيم... أربعة، خمسة، ستة أموات كانوا يقلّبون جسده الميت فوق سرير الرخام... سبعة، ثمانية، تسعة أموات كانوا يهرشون رأسه ويسكبون فوق جسده الماء.

يعرف إبراهيم هذه الوجوه ويدرك قسماتها التي لا تجيد الفرار، من أين أتوا؟

«من أين أتيتم؟ أنتم موتى، كيف لكم أن تعودوا إلى الحياة»؟! كان يسأل هؤلاء الذين لم يسمعوه البتة. إنهم أموات.

كانوا يتكلمون فوق جثته فتخالط أصواتهم بعضها بعضاً لتتحول إلى صوت قفير نحل لا يستكين.

«من أين أتوا»؟!: لم يفهم من خلط هذا القفير إلا كلمة واحدة: الله...الله.....الله....الله.

حاول إعلام هؤلاء أنه الحي وهم الأموات..تكاثفوا فوقه

حتى صار إحصاؤهم مستحيلاً.. لم يدر من أين أتوا، صاروا بعدد كلمات الكتاب، كما فكّر ساهياً. حتى الطفلان الصغيران رأى إبراهيم إليهما وهما يدسان في فمه ومنخريه قطناً أبيض وقماشاً.

توارت الوجوه بغتة، أما الأجساد فقد ظلّت تمور في نوم إبراهيم.صارت كل وجوه غاسليه وجه جدّه..وجه جدّه فقط. لم يكن فوق الرخام إلا وجه جدّه الكثير. كل أموات القرية حضروا بوجه جدّه. كانوا يتزاحمون عليه بالماء الفاتر وبالصابون. «أنا حيّ.. . أنا حيّ!!»، كان يصرخ بوجه جدّه المتعدّد الأجساد. قفز من فوق الرخام وحاول القفز من البيت، لكن الباب، باب البيت أغلق بوجهه وتحوّل إلى محض جدار. حتى النافذة احتلها مجاذيب القرية... لكن بوجه جدّه الكثير. «أنا حيّ....أنا حيّ!!» عاد يكرر لغاسله/ لغاسليه.لم يسمع الصوت أحد، فصوته كان جد خفيض.

صار يتحرّى الطريق إلى الرخام بين جمهرة مغسليه وهو يردّد: أنا ميت...أنا حيّ...أنا ميّت...أنا.

استسلم أخيراً لأجساد جدّه واتخذ فوق سرير الرخام هيئة الميت بكل رضا وبكل تسليم.

تزاحم فوقه جدّه الكثير يقرأ الكتاب كقفير نحل، فلا يسمع إبراهيم الميت إلا: الله.....الله....الله.

«أنا ميت»، قال فوق الرخام لجدّه الكثير الذي انتهى إلى أن يصير واحداً أحداً لا يشاركه شريك. « أنا ميّت» صار يؤكّد لجدّه الواحد، وهذا الآخر يغلق له عينيه الاثنتين.

مات إبراهيم في منامه ولم يشاهد إلا سهلاً أخضر فسيحاً، وخيطاً منسلاً من منديل أبيض نظيف، وصوت امرأة تغني بسلام. حاول رفع رأسه الصغير والنظر إلى صاحبة الصوت لكنه ميت كما أخبره جدّه الكثير.

ملكت المرأة صاحبة الصوت على إبراهيم نفسه، وصار يحاول تحريك أصابعه علّه يلتقط خيط منديلها المنسل فوقه بعطف وحنان.

«لكنّي ميت»، قال إبراهيم ولم يقل.. لأنّه ميت كما أخبره جدّه الكثير.

لم يكن في الخارج عاصفة ولم يكن شتاء. ربيع وزهر كثير ونحل يطنّ: الله.....الله...الله.....الله.

إنّه جدّه عاد إليه من كل مكان يرش فوقه الطيب ويقول. لم يكن يقول...لكنه كان يقول.

خاف إبراهيم كيف أن جدّه تلاشى وقد انشقّ الباب فجأة ليتسلل عبره كائن مقطوع اللسان من دون عينين في وجهه ويحمل

بيده كوباً من الشاي الأحمر يرش به وجه إبراهيم الذي استفاق مذعوراً وصار يردّد: الله.. .الله....الله...الله. قام من فوق الرخام بسرعة وصار يحدّق إلى وجه الفتاة الميتة، راسماً في ذهنه الطائش كيف تسللت عبر الباب ورشّت وجهه بالدماء.

«إنّه الشيطان في بيتي أنا»، قال إبراهيم وهو يحرك فكيه مضغاً وثمة صوت يشبه صوت قعقعة الأقفال.

45

«اللهم أعنّي، إنّك أنت القادر الجبار»: قال إبراهيم وهو يحول النار لهيباً تحت طسوت المياه.

ثمة ازرقاق صار يبين عند أنامل الخرساء، وبعض تيبّس باغت الجثة الهشة. أحرق إبراهيم البخور في أربع زوايا المنزل مردّداً اسم الجلالة بوتيرةٍ واحدة تتابع تهدج أنفاسه المقطعة الأوصال.

أخرج صابونه الجديد من إحدى العلب المعدنية وصار يقطعه قطعاً صغيرة ليسهل عليه إذابته في الماء الساخن. صارت المياه قريبة إلى حدّ الغليان حين أطفأ النار من تحت الطسوت، وصار بواسطة قماش كثير، يمسح دماء الحيض من فوق الفرج وعنه وهو يردد اسم الجلالة، مولياً وجهه عن مسكن الشيطان وعينه.

كانت حبّات العرق تتلألأ فوق جبينه الأصفر وقد تفصّد ظهره بالعرق.

«اللهم خلّصني من مكائد الشيطان وكمائنه، وامنحني بركة أن أكون رمحاً في يدك يا عزيز يا جبّار». عاد إليه صوت جدّه هاتفاً، يدعوه إلى منازلة إبليس: «إنّ لله جنوداً أسكن الله سيوفه في جنباتهم...».

صار إبراهيم ينشط أكثر وهو يغسل جثة الفتاة، صار كأنه واحد في ريعان الشباب.

«من فقأ عين الشيطان برمحه فتح الله بصيرته إلى يوم الدين»... صار إبراهيم في بيته في أول عمر الشباب، يبدّل الصابون بصابون آخر ويرش المسك فوق جسد الشيطان.

صارت الجثة الخرساء ناعمة، صارت نشطة، مهفهفة، عذبة، صارت تراود إبراهيم بشدّة كي يفقأ عين الشيطان.

«إنّه وعدُنا لرب العالمين أن نفقأ عين الشيطان كلما كان إلى ذلك سبيل، فلا تخذل ربك يوماً يا ولدي يا إبراهيم».

رمى بكل حطبه في الموقد، وكان عارياً إلا من عينه الواحدة، ومسك كثير، وصابون منتشر في كل مكان.

أسكن نفسه فوق الفتاة بخفة، ثم أسكنها فوقه ليرى إليها من كل صوب.

صار يعود إلى عين الشيطان تباعاً، يفقؤها برمح الله وسيفه. هدم وكر الشيطان عن بكرة أبيه... وعند لحظات الفجر الأولى استكان إلى سهاد عميق بعد أن كسّر قرني الشيطان.

نام إبراهيم عند الفجر، وحين استفاق كانت الخرساء تحدّق بعينيها المنفرجتين في سقف البيت.

«إلى ماذا تنظر يا ترى ؟!»، قال وهو يشارك الفتاة السقف. بعض لسانها كان لا يزال خارج فمها الميت، وثمة شيطان، فكّر إبراهيم، يحوم تحت السقف الآن.

قرّب أذنه من فم الفتاة علّه يسمع فصيح قولها، ثم صار يجرجر رأسه على بقية جسدها وصولاً إلى ما بين الفخذين حيث يرقد الشيطان مضرّجاً.

أسكن أذنه فرجها لوقت ممنياً النفس ببقية حكي لعلّ الشيطان يكون قد تركه هناك.

«إلام تحدّق هذه الخرساء يا ربّي»؟! كرر، وهو يرهف السمع إلى الشيطان الرجيم الذي ترك بعض أسراره القبيحة في وكره الذي قد حطمه إبراهيم...لكن صوت الفراغ هائل داخل وكر الشيطان.

جذب الفراغ إبراهيم مرّة بعد مرّة ثم جذبه من جديد. صار الشيطان كما فكّر إبراهيم، يعود إلى وكره مجدّداً مجبراً إياه على معاودة مصارعته في الساحة التي لا تسكين.

«إنّ صوت الشيطان هادر، إنّ صوته يصم الآذان».

بهذا تمتم إبراهيم أخيراً وهو ينصت إلى صوت فرج الميتة الخرساء.

46

«لا تحدّق إلى السقف كثيراً، لأنه عندئذ قد يطبق عليك»، بهذا كلّمه جدّه عندما كان في العاشرة من العمر. أسرع إلى النافذة يفتحها وقد أطبق الجو عليه، كان الحطب في الموقد قد صار إلى الرماد بارداً، وثمّة غراب في الخارج كان جامداً كتمثال رخام.

....أما فرج الفتاة الخرساء فلم يمد إبراهيم إلا بما يمده به سقف البيت وهذا الغراب الواقف هناك.

«لن أسمح لهذا اللعين أن يطبق عليّ، لن أسمح لسقف البيت أن يطبق على إبراهيم».

صار يرجّ الجثة بعنف ويبصق عليها ملء فمه من لعاب. صار إبراهيم يرفع يديه فوق رأسه محاولاً رفع سقف البيت الذي صار يطبق تارة بتمهل وتارة بسرعة كدبيب النمل.

لم يكن الغراب بعيداً، صار عند نافذة إبراهيم ينقر عتبة النافذة التي عجّت بنحل ميّت من شدّة البرد.

صار إبراهيم يبدد نظرة عينه الواحدة بين الغراب الذي يأكل النحل الميت، وسقف بيته الذي لا يشبه إلا النمل.

....إنّ لله من عباده الصالحين...

...إنّ لله من عباده الصالحين...

...كان يردّد فوق الفتاة متهدجاً، لما.. ..رررفّ...طار الغراب طيرة خوف.

إنها العجوز الشمطاء تنظر إلى إبراهيم عبر نافذة الغراب الأسود الذي رفّ وطار مذعوراً من شدّة الخوف.

نظرت إلى إبراهيم ملياً ثم ولّته الظهر ومشت.

قام من فوق الفتاة ساهياً إلا عن خنجر قديم في إحدى يديه. لم تمد النافذة إبراهيم لا بالغراب ولا بالشمطاء. تلاشت هكذا كأنها ليل في جوف ليل. صار يمط رقبته إلى الخارج المذعور علّه يشاهد الشمطاء.

خرج من البيت عارياً إلا من الخنجر.

لم يسبق لإبراهيم أن سار في هذا الوادي العميق. كان يتحرى رؤية الشمطاء بين الصخور والأشجار والمواشي النافقة على الدروب.

لم يكن دليله في هذا الوادي السحيق إلا خنجره وثغاء الماعز يأتيه من جهة القرية.

لم ير إبراهيم إلى نفسه عارياً. لم ير إلى نفسه إلا خنجراً مسلولاً وعجوزاً شمطاء لا تجيد سوى الموت.

تلاشت هكذا كأنها جرو دخل وجاراً غير موجود، وجاراً ماورائياً... وجاراً مستحيلاً لا يجيده إلا الله أو الشيطان.

لم يكن إبراهيم ملماً بطرق هذا الوادي وتشعباته الكثيرة. لم يكن ملماً بجسده، ولا بعريه، ولا بالقمر، ولا بالشمس.

إنها المرّة الأولى التي يغادر فيها بيت العسل والغسل والأموات. جاب ثقوب الوادي وبطاحه، والظاهر من هذا الوادي والباطن، وفي باله خنجر في قلب الشمطاء.

إنّه الفجر بلونه الرمادي المتشح بالأسود يرسم الطريق إلى القرية.كان ثغاء الماعز يبشّر إبراهيم بالقرية التي صارت قاب قوسين. عجّل المضي إلى هناك، وصار يحث الخطى أسرع..

47

من قال إن إبراهيم يسير في الوادي عارياً؟!!

من قال إن إبراهيم يهرول وفي يده خنجر؟!!

كلا، إنّه إبراهيم يمسد ظهر خيل لطالما راوده في الأحلام. إنّه يسير خلف قطيع من الغنم الأبيض... إنّه يرعى غنمه هنا، إنّه يرعى وجوده الناصع الذي قد أخذ بتلابيبه من كل حدب وصوب.

بانت القرية أمام إبراهيم.

إنّه على مرتفع صغير يتأمل قريته التي لم يشاهدها قبلاً. لم يكن ثمة شيوخ أو رجال أو نساء. لم ير في القرية شاباً أو فتاة. لم يكن في ساحة القرية إلا أولاد صغار يركضون بعضهم خلف بعض وهم يصدرون أصواتاً كثيرة.

دنا إبراهيم من الصغار الذين لم يعيروه انتباهاً. فرّق صفوف هؤلاء الأولاد الذين لم يولوه اهتماماً.

رمى الخنجر من يده وصار يتفرس في وجوه الصغار.

48

كان إبراهيم عارياً ينصت إلى صراخ الصغار وهتافهم الذي يصمّ الآذان.

لم يكن في القرية أحد. لم يكن في القرية إلا إبراهيم غاسل الأموات وبضع صغيرات شمطاوات يطاردن صبياناً صغاراً في وجه كل منهم فم وأنف وعين واحدة.

لم يسأل الصغار عن ذويهم وقرر العودة إلى البيت. نزع منديلاً أبيض عن حبل غسيل، لفّه على جسده العاري وقفل راجعاً من حيث أتى.

قطع الوادي السحيق آيباً إلى بيته حيث الماء الدافىء الحميم، ورائحة الريحان والبخور والصابون المعطّر والرخام.

وصل إلى البيت بسرعة ووقف بين ناس القرية ينتظر دروه كي يقوم جدّه العجوز بغسله فوق سرير الرخام.

...كان اللسان جافاً كأنه قطعة قماش مرمية تحت شمس لا تغيب. صار يمعس بإصبعيه ما بان من هذا اللسان عبر الشفتين غير المطبقتين. كان يشد على لسان الأخرس المسكين متخيّلاً أن الكلمات ستنزّ أو تسيل أو ترشح أو شيئاً من هذا القبيل. لكن فصاحة ألسنة الموتى لا تستجيب إلا للملائكة «يا إبراهيم» أخبره جدّه في ذلك اليوم ، وأردف: «نصيب الأحياء من الفصاحة حالة عابرة يا ولدي، فاللسان الفصيح هو فقط لسان أولئك الذين يموتون».

فوزي ذبيان، روائي لبناني، حاصل على دبلوم دراسات عليا في الفلسفة.

صدر له:

- أكميل (رواية)، دار الساقي، 2005.
- الارهابي الأخير، (رواية)، دار الفارابي، 2010.

ISBN 978-614-432-122-5

9 786144 321225